التَّخَيُّلُ التَّاريخِيُّ بَيْنَ النَّصِّ والسُّلْطَةِ: روايَة "الوَبَّاص" لتامر راضي نَموذَجًا

خلدون أحمد عبد المنعم الجعافرة *

khaldonjaafreh@gmail.com

تاريخ تقديم البحث: 2024/12/17 تاريخ قبول البحث:25 /2025/3

ملخّص

يُمثِّلُ التّاريخُ مجالًا حيويًّا خصبًا لاشْتِغالِ المُخَيّلَةِ السّرديّةِ، التي تعيدُ قراءتَهُ وتأويلَهُ في ضَوْءِ المُعطياتِ المُعاصرةِ، وهوَ ما يشكِّلُ الفكرةَ الرّئيسةَ التي تدورُ حولَها رواية "الوبّاص"، التي تقرأُ المشهدَ السّياسيَّ المعاصرَ في ضَوْءِ مُصطلحِ المُتَخَيَّلِ التّاريخيّ؛ ما يُحدِّدُ هدفَ الدّراسةِ المتمثّلَ في مقاربةِ المصطلحِ في الرّوايَةِ وفقَ ثُنائِيَّةِ النَّصِّ والسُّلْطةِ، وتِبْيانِ فاعِليَّتِهِ في التَّمثُّلِ والتَّمثيلِ، وكشفِ أبعادِه الدّلاليَّةِ في قراءَةِ تجليّاتِ السُّلطةِ وشكلِ حُضورِها في الرّاهنِ السّياسيّ في ضَوءِ النّصّ الرّوائيّ، وقدرتِه على فتحِ أفقٍ حرٍّ وغيرِ مقيَّدٍ للكتابَةِ؛ وذلكَ في عنوان الدّراسة "المُتَخَيَّلُ التَّاريخِيُّ بَيْنَ النَّصِّ والسُّلْطَةِ: روايةُ الوَبَّاص لتامر راضي نَموذَجًا". واعْتَمَدَتِ الدّراسةُ السِّميائِيّاتِ السّرديّةَ والمَنظورَ الغريماسِيَّ مَنْهَجًا، لوفرةِ الشّخصيّات، والأحداثِ، والحَبْكاتِ، وتنوّعِ الأمكنة.

وَخَلَصَتِ الدِّراسَةُ إلى فاعِليَّةِ التَّخيُّلِ التَّاريخيّ في التَّمثُّلِ والتَّمْثيلِ، حَيْثُ شَكّلَ العنوانُ خطابًا تمثيليًّا للسّلطةِ في جَميعِ علائقِها: دينيًّا، وثقافيًّا، وأُسْطوريًّا، وسياسيًّا؛ ما كَشَفَ طَبيعةَ نُظُمِ الحُكْمِ الاسْتبداديَّةِ، مثلَما كَشَفَتِ اسْتراتيجيّةُ اللّغةِ والتَّسميَةِ آليةَ تشكُّلِ الأنساقِ الثّقافيّةِ والدّينيّةِ والذّهنيّةِ في فهمِ السُّلطةِ والموقفِ منْها في الموالاةِ والمُجابَهَةِ، وبَرزَتْ فاعليَّةُ التَّخَيُّلِ التّاريخيّ وبُعْدُهُ الاسْتعاريُّ في مَشْهَدِ جُغْرافيا رَأْسِ الخَيْلِ بِأَكْمَلِها، إذْ تَكَشَّفَتْ عَنْ صِراعٍ تاريخيٍّ وَوجودِيٍّ قَديمٍ جَديدٍ، هوَ الصِّراعُ مَعَ الفُرْسِ والرّومِ.

الكلمات المفتاحية: التّخيّل التّاريخي، السُّلْطَة، الوَبَّاص.

* باحث في النقد الأدبي الحديث، وزارة التعليم، الإمارات العربية المتحدة.

Historical Imagination between Text and Power: Tamer Rady's Novel "Alwabbas" as a Model

Khaldoon Ahmad Abdel Mon'en Al-Ja'afreh *
khaldounjaafreh@gmail.com

Submission Date: 17/12/2024 Acceptance Date: 25/3/2025

Abstract

History represents a fertile, necessary field for the narrative imagination to work on, which is rather reread and interpreted in light of contemporary data. It is not surprising, thus, that history constitutes the main idea around which the novel "Alwabbas" revolves, which reads the contemporary political scene in light of the term "historical imagination". The objective of the study examines the duality of text and power to demonstrate its effectiveness in representation and depiction, reveal its semantic dimensions in reading the manifestations of power and the form of its presence in the political rendering in light of the novelistic text, besides its ability to open an unrestricted horizon for writing as stated in "The Novel Al-"Wabbas" by Tamer Rady as a Model." The study adopted narrative semiotics and the Greimasian perspective, due to the abundance of characters, events, plots, diversity of places.

The study concluded that historical imagination is effective in representation and depiction, as the title formed a representative discourse of authority in all its relations: religious, cultural, mythological, and political. The study concluded that historical imagination is effective in representation and depiction, as the title formed a representative discourse of authority in all its relations: religious, cultural, mythological, and political, which revealed the nature of authoritarian regimes, just as the strategy of language and naming revealed the mechanism of the formation of cultural, religious, and mental systems in understanding authority and the position towards it in loyalty and confrontation. The effectiveness of historical imagination and its metaphorical dimension emerged in the entire scene of the geography of Ras al-Khayl, as it revealed an ancient and new historical and existential conflict, which is the conflict between the Persians and the Romans.

Keywords: Historical Imagination, Authority, Al-Wabbas.

* researcher Modern Arabic Literary Criticism, Ministry of Education, UAE .

مقدمة

يمثّلُ التّاريخُ مجالًا معرفيًّا حيويًّا للمُخيّلةِ الرّوائية، التي تُطوّعُ مرجعيّاتِه لرؤاها، بالانتقاءِ والحذفِ والتّعديلِ والإبدالِ في اصطلاحِ الرّواية التّاريخيّة؛ غيرَ أنَّ مقاربةَ النّصوص الرّوائيّةِ وفقَ مُصطلحِ التّخيُّلِ التّاريخيّ يُحرّرُ الرّوائيَّ ونصَّهُ من الوظيفةِ المرجعيَّةِ والتّوثيقيّةِ والوصفيّةِ لمصلحةِ الوظيفةِ الجماليَّةِ والرّمزيَّةِ؛ ما يمكّنُه من مُساءَلةِ الخِطاباتِ المَسكوتِ عنها في الثّقافةِ العربيّة، التي تشكّلُ تابوهاتٍ مغلقةً ومسيَّجةً بالرّقابةِ والرُّعبِ، وأبرزُها تابو السُّلطةِ واشتغالُه النّصيُّ.

لذلكَ، هَدفتْ هذهِ الدّراسةُ إلى مُقارَبةِ مُصطلحِ التَّخَيُّلِ التّاريخيّ في الرّوايَةِ العَربيَّةِ وفقَ ثُنائِيَّةِ النَّصّ والسُّلْطةِ، وتِبْيانِ فاعِليَّتِهِ في التَّمثُّلِ والتَّمثيلِ، وكشفِ أبعادِه الدّلاليَّةِ في قراءَةِ تجليّاتِ السُّلطةِ وشكلِ حضورِها في الرّاهنِ السّياسيّ في ضَوءِ النّصّ الرّوائيّ، وقدرتِه على فتحِ أفقٍ حرٍّ وغيرِ مقيَّدٍ للكتابَةِ؛ وذلكَ في رِوايَةِ الوَبّاص لتامر راضي*، التي اسْتَوعبتْ شرطَ التَّخيُّلِ في بُعدِهِ التّاريخيّ، إذْ تَستعيرُ شرطَهُ الزّمنِيَّ، وتَتجرَّدُ من المَرجعيَّاتِ الماديّةِ الواقعيَّةِ ذاتِ الطّبيعةِ التّوثيقيَّةِ أو التّسجيليَّةِ: أحداثًا وشخصيّاتٍ وأمكنةً؛ لتشكّلَ خطابَها في فضاءاتٍ تاريخيّةٍ متخيَّلةٍ وفقَ استراتيجيّةٍ لغويّة، تؤسّسُ بذاتِها ولذاتِها عوالَمها: أمكنةً وأزمنةً وشخصيّاتٍ وأحداثًا، في اشتباكٍ مُعلنٍ معَ حريّةِ الكِتابةِ بعيدًا عن سُلطةِ الرّقابةِ والمُساءَلةِ؛ وهنا تكمنُ أهميّةُ الدّراسةِ، إذْ تقاربُ روايةً مشتبكةً بلحظتِها الرّاهنةِ ثقافيًّا وسياسيًّا وفقَ اصْطلاحِ التَّخيُّلِ التّاريخيّ، الذي مكّنها من رمزيّةِ الإسقاطِ ودلالاتِه؛ كما أنَّها لمْ تَحْظَ بدراساتٍ علميَّةٍ سابقةٍ سوى الإطارِ النّظريّ لمصطلحِ الرّوايةِ التّاريخيَّةِ والتَّخيُّلِ التّاريخيّ.

واسْتعانتِ الدّراسةُ بالسّميائياتِ السّرديّةِ والمَنظورِ الغريماسيّ مَنْهجًا ضابطًا لعنواناتِها، وذلكَ لوفرةِ الشّخصيّات والأحداثِ والحَبْكاتِ الصُّغرى وتنوّعِ الأمكنةِ، وخُصوصيَّةِ الرُّؤيا التي يَنْطوي عَليها الخِطابةُ الرّوائيُّ؛ فانتظمتِ الدّراسةُ في مقدّمةٍ، وتمهيدٍ يعرّفُ بمصطلحِ الدّراسةِ الرّئيسِ، وحيثيّاتِه، وأسئلةِ الرّوايةِ المَركزيّةِ، وثلاثة عنواناتٍ أساسيّة: أوّلُها مفاتيحُ الخِطابِ السَّرديّ، متضمنًا رمزيّةَ اللُّغةِ، والحبكةَ، والزَّمنَ، والصّراعَ، والإيقاعَ السَّرديَّ؛ وثانيها هندسةُ المكانِ والفاعلُ السّرديّ، متضمنًا المكانَ المفتوحَ بينَ التراتبيّةِ والتّناظرِ، والمكانَ المُغلقَ وكثافتَهُ الرَّمزيَّةَ؛ وثالثُها التّشاكلاتُ النّصيَّةُ وأنظمةُ الدّلالةِ، متضمّنًا سيمياءَ الأهواءِ في عاطفتي الحبّ والكراهيّة، وجدلَ الثَّقافيَّ والطّبيعيَّ.

* تامر راضي: كاتب وروائي أردني، مواليد عمان 1982، تخرج في جامعة مؤتة تخصص إدارة عامّة، له روايَة "الوَبّاص" موضوع هه الدراسة، ورواية قيد النشر بعنوان "خيول وادي أرنون"، ومخطوط رواية بعنوان "ألف ليلة في عدن".

ومن الجديرِ ذكرُه، أنَّ روايةَ "الوبّاص" لمْ تُقاربْ بدراساتٍ علميّةٍ سابقةٍ، سواءٌ في كتبٍ نقديّةٍ أو في مجلّاتٍ علميّةٍ، وفقَ حدودِ معرفةِ الباحثِ واطِّلاعِه؛ ما يجعلُ هذهِ الدّراسةَ سابقةً نقديًّا، معَ التّأكيدِ على أنّ الباحثَ أفادَ في الإطارِ النّظريّ والتّطبيقيّ من دراساتٍ نقديّةٍ، تُعَدُّ ركائزَ في مناقشةِ الرّوايةِ التّاريخيّةِ والتّخيّلِ التّاريخيّ، من ذلكَ: كتابُ "الرّواية التّاريخيّة" جورج لوكاش (1986)، وكتابُ "الرّواية والتّاريخ: دراسة في تخييل المرجعيّ" محمد القاضي (2008)، وكتابُ "التّخيّل التّاريخي: السّرد، والإمبراطورية، والتّجربة الاستعماريّة" عبد الله إبراهيم (2011)، وكتابُ "التّاريخي والسّردي في الرّواية العربيّة" تامر فاضل (2018)، ودراسةُ "رواية مسك الختام للأسير الفلسطيني "باسم خندقجي" دراسة في المتخيل التاريخي" نزار مسند قبيلات (2019)، مُثبِتًا إيّاها في إحالاتِ الإفادةِ، وثبتِ المَصادرِ والمَراجعِ.

تمهيد

يشكّلُ التّاريخُ ركيزةً مرجعيَّةً لقراءَةِ الماضي والرّاهن والمآل، من كونِهِ ذاكرةً توثيقيَّةً، وتسجيليّةً، واسْتقصائيَّةً، ما يجعلُهُ سجلًّا معرفيًّا، يتمركزُ خطابُ كتابتِه في سِياقِ الكشفِ عنِ القوانينِ المُتحكّمَةِ بأحداثِه الصُّغرى والكُبرى، خاصَّةً أنَّ نصوصَه تشكّلُ خطابًا محكومًا بمرجعيّاتِهِ وسياقاتِه الثّقافيَّةِ والاجتماعيَّةِ والسّياسيَّةِ؛ ما يعني أنَّهُ يتشكَّلُ بوصفِه نظامًا معرفيًّا مضادًّا لنظامِ المُتخيَّلِ السَّرديّ، الذي ينهضُ على الأسلوبِ المَجازيّ والرّمزيّ في صياغةِ المُكوّناتِ الرّوائيّةِ، وإنشائِهِ مكوّناتٍ جَديدةً تندرجُ في إطارِ عالمٍ سَرديٍّ مُتخيَّلٍ، ومُغايرٍ، وجَديدٍ؛ غيرَ أنَّ النّظامَيْنِ: التّاريخيّ والسّرديّ، يتقاطعانِ في اشْتمالِهما على فضاءٍ مكانيّ، وبنيةٍ زمانيّةٍ، وأحداثٍ، وشخصيّاتٍ؛ ما يجعلُ من تَسريدِ التّاريخِ فِعلًا جَماليًّا وفنيًّا ومعرفيًّا، يتخلَّقُ روائيًّا بجعلِه الخلفيَّةَ العامّةَ لآليّةِ التّخيّلِ السّرديّ؛ ليتفوَّقَ السّاردُ الرّوائيُّ على السّاردِ التّاريخيّ بتجاوزِهِ "المكونات الأسلوبية: الحدث والشخصيات والزمان والمكان... إلى ملامح أسلوبية روائية في الرصد والتسييج؛ ملامح تطال واقعية مغايرة ودرجات توتر درامية وعجائبية تجعل من الحقبة التاريخية المقصودة مادة حكائية متفاعلة، لتقدم في تصوير روائي مفتوح الأفق"[1].

هذا التّصويرُ الرّوائيُّ يتجاوزُ ما اصْطُلِحَ عَليهِ نقديًّا بالرّوايةِ التّاريخيّة، التي تقعُ ضمنَ منطقةٍ وسطى بينَ الأدب والتّاريخ، وتدمجُ بينَ خطابَيْنِ: جماليٍّ وتاريخيٍّ، تتقدّمُ في الخطابِ الأدبيّ الوظيفةُ الإنشائيّةُ على المَرجعيَّةِ، بينَما تتقدّمُ في الخطابِ التاريخيّ الوظيفةُ النفعيَّةُ لمصلحةِ الكشفِ عن القوانينِ المُتحكّمَةِ في الواقع، ولا تكونُ الرّوايةُ تاريخيَّةً إلّا إذا حملتْ من زمنِ كتابتِها مشاغلَه الأساسيَّةَ

(1) قبيلات، نزار مسند، "رواية مسك الختام للأسير الفلسطيني "باسم خندقجي" دراسة في المتخيل التاريخي"، *مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، المجلد السادس عشر، العدد الأول، 2019م، ص186.

وقضاياهُ الرّاهنة[1]، وفقَ رؤيةٍ جماليّةٍ وفنيّةٍ ودلاليّةٍ، تمكّنُ الرّوائيَّ من مزجِ "مادته الواقعية بمتخيل يحجبها، أو يسعى إلى حجبها، مستبدلًا زمنًا بآخر، ومرحلًا قضايا الحاضر إلى الماضي أو إلى زمن غائم يصعب تحديده، بقدر ما يستبدل بالمكان الذي يسائل قضاياه، ما يشاء من الأمكنة"[2]، وهو ما خَلَصَتْ إليهِ الكاتبةُ الفرنسيّةُ مارغريت يورسنار (Marguerite Yoourcenar) في توصيفِ معضلةِ الرّوايةِ التّاريخيّةِ بجملةٍ مكثّفةٍ: "قدمٌ في المعرفة، وقدمٌ في السِّحر"[3].

ذلكَ أنَّ تقاليدَ الرّوايةِ التّاريخيّةِ الكلاسيكيّةِ ظلَّتْ مسكونةً بحالةِ التّنازعِ بينَ سلطةِ التّاريخيِّ وسلطةِ المُتخيَّلِ السّرديِّ، حيثُ "يتجاذبها هاجسان: أحدهما، الأمانة التاريخية، والآخر مقتضيات الفن الأدبي"[4]، غيرَ أنَّ جورج لوكاش (Georg Lukacs) قدَّمَ رؤيةً تجاوزيّةً تتخطّى حالةَ التّنازع، وذلكَ في تركيزِهِ على ما يجدرُ الاهتمامُ بهِ في الرّوايةِ التّاريخيّةِ، فما يهمُّ "ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهمّ هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي"[5]، وحتّى تأخذَ الروايةُ التّاريخيّةُ طابعَها الفنيَّ والمعرفيَّ، فإنَّها، وفقًا لرؤيتِه، مطالبةٌ بالقدرةِ على أنْ "تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق"[6].

ويرى عبد الله إبراهيم أنَّ إحلالَ مصطلحِ التَّخيُّلِ التّاريخيِّ محلَّ مصطلحِ الرّوايةِ التّاريخيّةِ، وهيَ الرّؤيةُ التي تتبناها الدّراسةُ، تفكيكٌ لثنائيّةِ الرّوايةِ والتّاريخِ، ودمجٌ لهُما في هُويّةٍ سرديّةٍ جديدةٍ، تُسهمُ في تحييدِ البحثِ في خُضوعِ التَّخيُّلاتِ السَّرديَّةِ لمبدأ المَرجعيّاتِ التّاريخيّةِ، لمصلحةِ العِبَرِ المُتناظرةِ بينَ الماضي والحاضرِ، والتّمثيلاتِ الرَّمزيَّةِ بينَهُما، واستيحاءِ التّأمّلاتِ والمَصائرِ والتَّطلُّعاتِ، بوصفِها الأطرَ النّاظمةَ لأحداثِها ودلالاتِها، فتنقطعُ عن الوظيفةِ التّوثيقيَّةِ لتؤدّيَ وظيفةً رمزيَّةً وجماليَّةً، فالتَّخيُّلُ التَّاريخيُّ لا يُحيلُ على حقائقِ الماضي قدرَ استلهامِها، بوصفِها ركائزَ تفسيريَّةً لأحداثِهِ، ومساءَلتُها

(1) ينظر: القاضي، محمد، *الرواية والتاريخ: دراسة في تخييل المرجعي*، ط1، دار المعرفة للنشر، تونس، 2008، ص23-27.

(2) دراج، فيصل، "نقد السلطة واستعارة الماضي"، *مجلة المستقبل العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 378، 2010، ص61.

(3) ستالوني، إيف، *معجم الرواية*، ترجمة محمد آيت ميهوب، ط1، دائرة الثقافة والسياحة، مشروع كلمة، أبو ظبي، 2024، ص99.

(4) تامر، فاضل، *التاريخي والسردي في الرواية العربية*، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، 2018، ص12.

(5) لوكاش، جورج، *الرواية التاريخية*، ترجمة صالح جواد كاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص46.

(6) لوكاش، *الرواية التاريخية*، ص89.

خارجَ السّردِ ضربٌ من الاستحالةِ، وبذلكَ تنتقلُ الكتابةُ السَّرديَّةُ من موقعِ التّقييدِ إلى تخومٍ رحبةٍ للكتابةِ المفتوحةِ على الماضي والحاضرِ[1].

ويحضرُ المُتخيَّلُ التّاريخيُّ في تشكيلٍ سرديٍّ جديدٍ، ينتفي معَهُ مبدأُ الإحالةِ إلى مرجعيّاتٍ تاريخيَّةٍ على شكلِ وثائقَ أو مُستنداتٍ أو خطاباتٍ، "فلا سبيل للبحث في أصوله قبل اندراجه في سياق الخطاب، فذلك السياق هو المانح الشرعي لهويته السردية"[2]، الأمرُ الذي يميّزُ الحقبةَ التاريخيَّةَ التي يشتغلُ عليها المِخيالُ السَّرْديُّ، ويجعلُها "تمثل حقل اشتغال دلالي مفتوح على كل الأنظمة القرائية"[3].

وعليهِ، فإنَّ كاتبَ روايةِ المُتخيَّلِ التّاريخيِّ في عودتِهِ "لمستندات التاريخ، يصحب معه مخيالًا مستعدًا لانتهاك حرمة كل مقدس أو محصن، وهو تبعًا للمصطلح النقدي الجديد، يعيد تصفيف الأحداث ومركزتها تبعًا لرؤية تبئيرية خاصة به، تقوم على رسم الشخصيات، وعلى تحبيك مغاير لخط سير الأحداث والمصائر المنصوص عليها في متن الزمن التاريخي"[4].

وفقَ هذا التَّصوُّرِ المفاهيميّ، يتشكّلُ الخطابُ السَّرديُّ في روايةِ "الوبَّاص"، إذ يتشكّلُ التَّمثّلُ التّاريخيُّ متحرّرًا من سلطةِ الإطارِ التّاريخيِّ المَرجعيِّ، مُستعيرًا فلسفتَهُ لتأويلِهِ، وذلكَ بتغييبِ المرجعيّاتِ التّاريخيَّةِ: الحدثِ، والشّخصيَّةِ، والمكانِ؛ وحضورِ اللُّغةِ الفصيحةِ بزمنِها الماضي المجرَّدِ، لتناقشَ أعقدَ قضايا الرّاهنِ العربيِّ، ممثَّلَةً في مَفهوم السُّلْطةِ، وآليةِ اشتغالِها، والموقفِ منها؛ ما جعلَ منْ نظريّةِ مكيافيللي (Machiavelli) في فلسفةِ الحكمِ، أرضيّةً معرفيَّةً لمقاربةِ مخبوءِ الرّؤيا التي تشكّلُها مقولاتُ روايةِ "الوبَّاص"، بوصفِ الأُولى تخليصًا للبراغماتيَّةِ السّياسيَّةِ منْ عبءِ الفكرِ الأيديولوجيِّ والدّينيِّ، وتكريسًا لخطابِ الهَيمنةِ والاستبدادِ في تَجسُّدِها الواقعيِّ، حيثُ تَشكّلَ كتابُ الأميرِ بوصفِه خطابًا طاردًا للأفلاطونية واللّاهوت معًا[5]؛ وبوصفِ الثّانيةِ "الوبَّاص" حفرًا معرفيًّا، بواسطةِ السَّردِ، في خفايا خِطابِ الهيبةِ الذي يمارسُ السّلطةَ والحكمَ، لكونِ الهيبةِ نتاجَ خطابِ القوّةِ؛ فيكونُ "الشَّخص الذي يمتلك الخطاب، من خلال قدرته على إثارة الخوف والحب، سيّد العالم"[6].

---

(1) ينظر: إبراهيم، عبد الله، *التخيل التاريخي: السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص5-13.

(2) إبراهيم، *التخيل التاريخي: السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية*، ص209- 210.

(3) قبيلات، "رواية مسك الختام للأسير الفلسطيني "باسم خندقجي" دراسة في المتخيل التاريخي"، ص185.

(4) قبيلات، "رواية مسك الختام للأسير الفلسطيني "باسم خندقجي" دراسة في المتخيل التاريخي"، ص184.

(5) ينظر: مكيافيللي، نيقولا، *كتاب الأمير*، ترجمة أكرم مؤمن، ط1، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص51-66.

(6) بيني، لوران، *الوظيفة السابعة للغة*، ترجمة محمد الجرطي، ط1، منشورات نابو، بغداد، 2021، ص 184.

وذلك، تكريسًا لفلسفةٍ ترى أنَّ الحكمَ يكونُ بالهيبة، التي يكرّسُها خطابُ القوّةِ؛ ولا تؤسّسُ هذهِ القراءةُ لفعلٍ مقارَنٍ بينَ رؤيةٍ سياسيَّةٍ في الحكمِ وخطابٍ سرديٍّ مُتَخيَّلٍ يَنطوي عليها، فليسَ هذا مدارُ اشتغالِها؛ وإنَّما تشكّلُ فلسفةُ ميكافيللي إضاءَةً أساسيّةً كاشفةً لمقاربةِ الخطابِ الرّوائيِّ للوبّاص، الذي يتأسّسُ على مقولاتٍ تهمّشُ الأبعادَ المقدّسةَ وأخلاقيّاتِها التي تبنَّتْها السّلطةُ في مؤسّساتِها وخطابِها، وتُعلي من جانبِ خطابِ القوّةِ والهيبةِ، بوصفِهما فلسفةً للحكمِ وممارسةً للسّلطةِ، من خلالِ التّصوّرِ الاستعاريِّ التّاريخيِّ النَّسقيِّ، متوسِّلةً التَّخيُّلَ التّاريخيَّ استراتيجيّةً للسّردِ، إذْ "يبني الروائي عالما هو مرجع ذاته، ومرجع حقائقه، فلا صلة للسرد بالواقع، إنما يكتفي بمنح معنى لأشيائه"[1].

وشكّلتِ اللّغةُ العربيّةُ الفُصحى، في الفضاءِ الرّوائي، بؤرةَ إشعاعٍ لعوالمِه وأفضيتِه، في السَّردِ، والبناءِ، والشّخصيّاتِ، والحواراتِ دونَ الاحتكامِ لشرطَي المكانِ والزّمان، بلْ توليدهما في المخيّلة الرّوائيّة والقرائيّة؛ لنكونَ في مواجهة تامّة مع استعارةٍ، تعيدُ اخْتراعَ التّاريخِ وفقَ أنموذجٍ مُتخيَّلٍ، إذ استطاعتْ أنْ "تنغمس في زمن مستعاد، بسط العالم الدّاخليّ نفوذَه عليه"[2]، وتعيدَ قراءةَ الرّاهنِ السّياسيِّ العربيِّ وأزماتِه، من خلالِ استبعادِ الوثيقةِ التّاريخيّةِ السّياسيّةِ، وجعلِ هذهِ السّرديَّةِ لازمتَها الكاملةَ، مُتّخذةً من ثنائيّتَي: الماءِ والحبِّ، والدّم والحرب، ثيمًا رئيسةً في بناءِ عوالمِها المُتخيّلة.

وبذلكَ، تؤدّي روايةُ المُتَخيَّلِ التّاريخيِّ "الوَبّاص" وظيفةً فنيَّةً ومعرفيَّةً، مؤدَّاها "الاضطلاع بدور فعال معترف به في تأويل التاريخ عوضًا عن مجرد الاكتفاء بدور المعاينة السلبية"[3]؛ فيكون جوهرُ الخطابِ في روايةِ "الوَبّاص" في أحدِ معانيهِ "خطابَ حفريّاتٍ حول الكائن العربي كوحدة أنثروبولوجية في علاقته بالسياق الثقافي الذي يتدخل في تشكيل أعماقه على كافة المستويات: نفسية، سياسية، إثنولوجية"[4].

ويستدعي الكشفُ عن التّمثيلاتِ الرّمزيَّةِ والدّلاليَّةِ للسّؤال المركزيّ: سؤالِ المَصيرِ، النَّظرَ في آلياتِ تشكّلِ النّسقِ اللُّغويّ، والأبعادِ الرَّمزيَّةِ التي انْطوى عليها في جانبِهِ الفصيحِ، وعلاقتِه ببناءِ الشَّخصيَّاتِ، وأدوارِها، ووظائفِها؛ خاصَّةً أنَّ الشَّخصيَّاتِ شكَّلتْ حَبكاتٍ صُغرى رمزيًّا ودلاليًّا، أسهمتْ في تشكيلِ الحبكةِ الكُبرى سرديًّا، وفتحتْ مساراتٍ ممتدّةً وعميقةً في تحقيقِ الإثارةِ والتّشويقِ من خلالِ تكنيكاتٍ

(1) بنكراد، سعيد، *الهوية السردية: المحكي بين التخييل والتاريخ*، ط1، المركز الثقافي للكتب، الدار البيضاء، 2023، ص12.

(2) ستالوني، *معجم الرواية*، ص99.

(3) تامر، *التاريخي والسردي في الرواية العربية*، ص18.

(4) الدوهو، محمد، *السلطة والمعرفة في الرواية العربية*، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2022، ص36.

سرديَّةٍ متنوّعةٍ ذاتِ ارتباطٍ وثيقٍ بالزّمنِ السَّرديّ وإيقاعِه: تسريعًا أو تبطيئًا، رغمَ ارتباطِها الوثيقِ بالسَّاردِ العليمِ، وهوَ ما يوسّعُ دائرةَ السّؤال، ويفتحُهُ على هُويّةِ الشَّخصيَّاتِ وطبيعةِ الصِّراعِ، ودورِهِ في بنيةِ الحبكةِ الكُبرى.

أولًا: مفاتيحُ الخطابِ السَّرديّ

يشيّدُ الخطابُ مقولاتِه على محمولاتٍ رمزيّةٍ تتضافرُ، لتشكيلِ سرديّةٍ متكاملةٍ قادرةٍ على تثبيتِ خطابِها، وفتحِه على آفاقِ التّأويلِ والتّداولِ، من خلال اللّغةِ، والحوارِ، والحبكةِ، والشّخصياتِ، والزّمنِ، والإيقاعِ السَّرديّ، انطلاقًا من كونِ الخطابِ السَّرديّ في الوبّاص إجابةً عن أسئلةٍ راهنةٍ في الواقعِ السّياسيّ العربيّ؛ ما يقتضي تثويرَ أطروحةِ ر. ج. كولينجوود (R.G.Collingwood)، التي "تنصُّ على أنّه لا يُمكن فهم النصّ إلّا إذا فهم السّؤال الذي يجيب عنه هذا النصّ"[1]، وإذا كانَ السّؤالُ المركزيُّ الذي تشكّلُ روايةُ "الوبّاص" إجابتَهُ، يتعلّقُ بسؤالِ المصيرِ، فإنّنا، بلا شكٍّ، أمامَ سرديّةٍ استعاريَّةٍ محكمةٍ، تطرحُ الرّؤيةَ النّسقيّةَ لفلسفةِ الحكم، وتكشفُ آلياتِ عملِها، لتعريتِها، وإبرازِ تناقضاتِها عبرَ مقولاتِها المختلفةِ.

ويشكّلُ الخطابُ السّرديُّ فضاءَه في "الوبّاص" من خلالِ رمزيّةِ اللّغةِ في طابعِها الفصيحِ ومضمونِها التّراثيّ، وبنيةِ الحبكةِ وفاعليّةِ الزّمنِ، وارتباطِها الوثيقِ بالصّراعاتِ المُتشكّلةِ في فضائِها وفاقيًّا وطباقيًّا، وتبيانِ الإيقاعِ السَّرديّ، وعلاقتِه بالرّؤيةِ السَّرديَّةِ، ذلكَ أنَّ مقولةَ الفضاءِ تتجاوزُ مقولةَ المكانِ عنصرًا روائيًّا دونَ أنْ تستثنيَهُ أو تتجاوزَهُ في شبكةِ الدّلالةِ العلائقيّةِ، بلْ تستثمرُ ما تحدّدَ وتجسّدَ في جغرافيّةِ النّصّ والعالم، وتبني عليها رؤيتَها في قراءةِ الأبعادِ الرّمزيّةِ من خلالِ الفضاءِ الدّلاليّ، والنَّصيّ، والمنظوريّ المرتبطِ بالرّؤيةِ أو الهُويّة السّرديَّةِ، كذلكَ الفضاءُ النّفسيُّ والاجتماعيُّ[2]؛ إنّها تبني رؤيةً علائقيّةً وثيقةً للنّسيجِ السّرديّ، بوصفِه عالمًا متخيَّلًا موازيًا للعالمِ الواقعيّ، تمارسُ فيهِ المخيّلةُ اشتباكاتِها؛ لكنَّهُ فضاءٌ ينتجُهُ خطابُ السّلطةِ في السّردِ، ويحكمُهُ، ويحدّدُهُ، فيصوغُهُ (الوبّاصُ) رأسُ السّلطةِ عبرَ استراتيجيتَيْ البرمجةِ الفضائيّة: برمجةِ أفعالِ الشّخوصِ وبرامجِ سرديّاتِهم، والحصرِ

(1) ياوس، هانس روبرت، *جمالية التلقي: من أجل فهم جديد للنص الأدبي*، ترجمة رشيد بن حدو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص52.

(2) ينظر: لحمداني، حميد، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص52-60.

الفضائيّ بضبطِ تنقّلاتِهم وهندستِها عبرَ حضورِها في كلِّ الفضاءاتِ، فعينُ السّلطةِ تراقبُ كلَّ شيءٍ: المكانَ والإنسانَ[1].

رَمزيّةُ اللُّغةِ

تتعالى اللّغةُ على مُعطى الإخبارِ والمباشرةِ في النّصّ، لمصلحةِ الإيحاءِ والتّرميزِ، بما يعكسُ السّياقَ الحضاريَّ والسّوسيو ثقافيّ الذي تصدرُ منهُ، وتعبّرُ عنهُ بالكشفِ والإفصاحِ؛ بوصفِها بطلًا إشكاليًّا، لما تمثّلُهُ بذاتِها من سلطةٍ ماديّةٍ ورمزيّةٍ، فتمثّلتْ في خطابِها مستوى الفُصحى السّاردةِ والمسرودةِ في حبكتِها، وبنيتِها الزّمنيّةِ، وأفضيتِها المتنوّعةِ، وتسميةِ شخصيّاتِها، وحواراتِها.

حيثُ تبني اللّغة استراتيجيتَها من خلالِ منطوقِها وملفوظِ شخصيّاتِها، ليكونَ السّردُ فضاءً نصيًّا لاحتواءِ الخطاب، وتثبيتِه، وتمريرِه من خلال الفصاحةِ، من ذلكَ سردُ الرّواي العليم: "أمر الوباص شامان أن يستقبل أسياد القبائل، فاستقبلوا الزعزاع وشيار وأوهد، وكان معهما وفود من مدنهم"[2]، كذلك الوصفُ، ومنه وصفُ النّساءِ على لسانِ (ثابت بن سليمان): "أما أحسنهن يا قوم: فضحوك الثغر، ملساء اليدين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، كحلاء العينين زجّاء الحاجبين، شريفة في قومها، وذليلة في نفسها"[3]، ولغةُ الوصايا، واستراتيجيَّةُ تسميةِ الشّخصيّات: (الوباص، الجوزل، شامان، الزعزاع، آرام، الرباب، ياقوت، حنظلة، ورنة)، وغيرها؛ كذلك الحوارُ؛ ما يجعلُ المتلقّي يعدّلُ أفقَ انتظارِهِ سريعًا، ويدخلُ العالمَ السّرديَّ المُتخيَّلَ، وعوالمَهُ التّاريخيَّةَ المُتخيَّلةَ، بوصفِه استعارةً تاريخيَّةً متحرّكةً، ذلكَ أنَّ "أفضل الاستعارات هي التي تمثل الأشياء في حالة حركة"[4]، فتعزلُ الواقعَ دونَ أنْ تنفصلَ عنهُ، في مسافةٍ جماليَّةٍ محكومةٍ بالتوتّر بينَ التّاريخيّ والتّخييليّ.

وتفرض اللّغةُ سلطتَها الرّمزيَّةَ، باحتوائِها الخطابَ، وتثبيتَهُ، وتمريرَهُ للمتلقّي، ليسَ بحكمِ وظيفتها الوسيطةِ بينَ مُنتجِ النّصّ ومتلقّيهِ فحسبْ، وإنَّما تفرضُهُ، بوصفِها، فاعلًا نصيًّا موازيًا للحبكةِ والزّمنِ والفضاءِ، ونظامًا دلاليًّا يستبطنُ الخطابَ ويكشفُه عبرَ الدَّوالّ؛ ما يوجبُ التّوقّفَ عندَ تسميةِ الملكِ (الوبّاص)، الذي أخذتِ الرّوايةُ اسْمَهُ، فسيرتُه معجميًّا تحيلُ إلى القمرِ[5]، وسرديًّا تكشفُ عن كونِهِ ملكَ

(1) ينظر: الدوهو، *السلطة والمعرفة في الرواية العربية*، ص103–106.

(2) راضي، تامر، *الوباص*، ط1، الآن ناشرون وموزعون، عمان، 2019، ص258.

(3) راضي، *الوباص*، ص12.

(4) إيكو، أمبرتو، *السيميائية وفلسفة اللغة*، ترجمة أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص278.

(5) ينظر: ابن منظور، جمال الدين بن مكرم (ت711هـ/ 1311م)، *لسان العرب*، تحقيق عامر أحمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج7، (مادة: وبص)، ص117.

منطقةِ رأسِ الخيل، ذاتِ الموقعِ الجغرافيّ المميّزِ للحركةِ التّجاريّةِ للعربِ وأهلِ الهندِ والفرسِ والرّومِ، وتضمُّ مدنًا عدّةً: العصوفَ مركزَ الحكمِ، والحرجفَ، والجوازلَ، والقلباءَ، وجبلَي أوهد وشيار؛ يعبدُ أهلُها "الحجر والشجر والقمر"[1]، كما يكشفُ السّردُ عن السّياق الجغرافيّ والحضاريّ والدّينيّ، الذي ترتّبَ على ملكِهِ، حيثُ "زادت الحروب، وتذبذبت التّجارة، وتقلّبت الأسواق"[2]، نتيجةَ الحروبِ الدّاميةِ بينَ الحرجفِ والجوازل؛ ما جعلَهُ مهيمنًا بقوّةِ جيشِهِ وحصونِ مدينتِهِ العصوف، إضافةً إلى نشرِهِ "عبادة القمر في منطقة رأس الخيل"[3].

فتكشفُ تسميةُ الوبّاص عن استراتيجيّة الهيمنةِ في تقاطعِها مع نشرِ عبادةِ القمر، ما يشيرُ إلى أنَّ (الوبّاصَ) يجمعُ الدّينيَّ إلى السّياسيّ، تضفيرًا لجدلِهما في إهابٍ أسطوريّ التّكوينِ؛ ذلكَ أنَّ أسطرةَ السّلطةِ "تجميد لحاضرها في الصيرورة الزمنية والتاريخية لضبط صيرورة الزمن الجمعي"[4]؛ ليغدو الحاكمُ ذاتُه معبودًا، تكريسًا لسطوةِ سلطتِهِ دينيًّا ودنيويًّا، حيثُ الدّينُ والدّنيا يتماهيانِ في كينونةِ شخصٍ واحدٍ، هو (الوبّاص) الأسطورة، وبذلكَ يحقّقُ العنوانُ، سيميائيًّا، علامةً كاملةً، تحلُّ بديلا عن الخطاب دون تمثيله في جميع علائقه، فيكشف المعالم الكبرى لموضوع الخطاب[5].

الحبكةُ وفاعليَّةُ الزَّمنِ

تتشكّلُ حبكةُ السّردِ الرّوائيّ وفقَ نظامٍ للأفعالِ المُتتاليةِ، والمتوازيةِ، والمتقاطعةِ، لجعلِ النّصّ السَّرديّ ممكنًا وقابلًا للتّصديقِ، عن طريقِ سببيَّةِ الأحداثِ بالضَّرورةِ أو الاحتمالِ؛ ما يجعلُ هويّةَ العملِ السَّرديّ تبدأُ من حبكتِهِ ،إذ تقوم الحبكة "بوظيفة إيجاد قصة واحدة من أحداث متعددة، أو إذا شئت، تحوّل الأحداث العرضية الكثيرة إلى قصة واحدة"[6]، حيثُ بدأَ نسجُ حبكةِ روايةِ "الوبّاص" من الصّفحةِ الرَّابعةِ: "شيحان دخل السوق، والرجال اجتمعوا عليه يريدون قتله"[7]، إنّه حدثٌ تثويريٌّ متقدّمٌ سرديًّا، ومتأخّرٌ عن زمنِ الحكاية، فهذا الحدثُ التّثويريُّ الأوَّلُ سرديًّا، يجيءُ بعدَ ستّينَ عامًا من الصّراعِ

(1) راضي، *الوباص*، ص10.

(2) راضي، *الوباص*، ص148.

(3) راضي، *الوباص*، ص47.

(4) الدوهو، محمد: *السلطة والمعرفة في الرواية العربية*، ص248.

(5) ينظر: إيكو، أمبرتو، *القارئ في الحكاية: التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية*، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص31-33.

(6) ريكور، بول، "الحياة بحثا عن السرد"، *الوجود والزمان والسرد: فلسفة بول ريكور*، تحرير ديفيد وورد، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999، ص37-56، ص41.

(7) راضي، *الوباص*، ص12.

والتّناحرِ، يُعادُ تقديمُها وعرضُها من خلال تقنياتِ الاسترجاعِ، والحذفِ، والتّلخيصِ، والحوارِ، والوقفةِ الوصفيّةِ؛ لكشفِ الخلفيّاتِ التّاريخيَّةِ والجغرافيَّةِ والثّقافيَّةِ والدّينيَّةِ لحدثِ دخولِ (شيحان) السّوقَ، وتصاعدِ الأحداثِ والذّرواتِ بعدَهُ، حتّى نهايةِ الأحداثِ لعامٍ ونصف، ما يعني أنَّ زمنَ الأحداثِ الفعليَّةِ سرديًّا قرابةَ عامٍ ونصف، وخلفيّاتُها التّاريخيَّةُ ستّونَ عامًا.

والسّاردُ العليم، يحيطُ بكافّةِ تفاصيلِ العملِ، ويملكُ تقديمَ سيرةِ ستّينَ عامًا، في تماهٍ دلاليٍّ معَ هيمنةِ السّلطةِ، لكنَّ بطلَ مدينةِ الجوازل (شيحان)، يُحْكِمُ رؤيتَه في نسجِ الحبكةِ التي تدورُ أسرارُها وعقدتُها وذرواتُها لعامٍ ونصف، ما يجعلُ التّشويقَ فاعلًا نصيًّا، يمسكُ خيوطَ السّردِ من بدايتِهِ حتّى نهايتِهِ؛ وهذا جوهرُ سرِّ بناءِ الحبكةِ لعشراتِ الأحداثِ المترابطةِ القائمةِ على مبدأ السّببيّة، فكلّما أوشكت الأحداثُ أن تنفرجَ، يَصْعدُ حدثٌ يزيدُ الأحداثَ تعقيدًا، ويستمرّ السّردُ على هذا المنوال المعقَّدِ لبنيةِ الحبكةِ الكُبرى، عبرَ حبكاتٍ صُغرى.

إنّ (شيحان بن صخر) زعيمَ مدينةِ الجوازل في صراعٍ عمرُه أربعونَ عامًا معَ أخوالِه زعماءِ مدينةِ الحرجف: (الغازي والجاسم أبناء بكر بن ورنة)، تلقّى تنشئتَهُ الأولى بينَهم مهانًا قرابةَ عشرينَ عامًا، كانتِ الجوازلُ تدفعُ فيها ثمنَ قتل (صخرٍ) أبي (شيحان)، لـ(حنظلةَ بن عمران) زعيمِ الحرجفِ ابنِ عمّ (الغازي)، الذي تسلّمَ زعامتَها بعدَهُ، وعلى مدارِ ستّينَ عامًا نهشتِ الحروبُ الطّرفينِ على مسمعِ الملكِ (الضّامر) وابنِهِ (الوبّاص) ومرآهما، الذي غذّى الصّراعَ بجعلِ الزّعزاعَ زعيمَ القلباءِ يدخلُ حليفًا للجوازل، وجعلَ (أوهد) و(شيار) يستقلّونَ عن الجوازلِ بمدينتينِ صغيرتينِ على جبلينِ متقابلينِ.

وهُنا، يمضي(شيحان) لأخوالِهِ زعماءِ الحرجفِ – بداية الحبكة – ليعقدَ معهم صلحًا، للانتفاضِ ضدَّ سلطةِ (الوبّاص) وإسقاطِها، مستغلًّا خروجَ (الغازي) إلى (الوبّاص)، ما يعقّدُ الأحداثَ، وتبلغُ ذروتَها بأسرِ الوبّاصِ للغازي بعدَ علمِهِ بدخولِ شيحانَ الحرجفَ للصّلحِ، ويصبحُ كلاهما: (الغازي) و(شيحان) أسيرًا، وبعدَ ثلاثةِ أيّام، يبدأُ الانفراجُ بقيامِ (اللّيث بن شيحان) بفكِّ أسرِ (الغازي) عبرَ السّردابِ السّريِّ لقصرِ (الوبّاص)، يرافقُهُ (جلحد) وفرسانُ الجوازل، ولمّا أبلغَ (شيحانُ) سادةَ الحرجفِ بخطّتِهِ، عقدُوا صلحًا، لكنَّ الأحداثَ تتعقّدُ بمحاولاتِ قتلِ (شيحان) بالسّمّ من قبلِ بعضِ سادةِ الحرجف: (أصهب)، و(نعمان)، ثمّ تُفَكُّ العقدةُ بنجاةِ (شيحان)، واستقبالِ (الغازي) بعدَ فكِّ أسرِهِ عندَ شجرةِ النّذيرةِ أو شجرةِ المجنون، والتّخطيطِ مجدّدًا لحصارِ العصوفِ بعدَ معاركَ ضاريةٍ، ثمّ استسلامِ (الوبّاص) بناءً على معاهدةٍ مع سادةِ رأسِ الخيلِ جميعِهم، بتولّي ابنَهُ (عمير) المُلْكَ مقابلَ موتِهِ، فيقتلُ (شيحانُ) (الوبّاصَ)، ثمّ يتعرّضُ لمؤامرةِ اغتيالٍ بالسّمّ مرّةً أخرى، بعدَ معاهدةٍ تضمنُ السّلمَ للجميع.

وتنتهي الأحداثُ بمشهدِ (شيحان) في لحظاتِهِ الأخيرةِ بموازاةِ إيراقِ شجرةِ النّذيرةِ التي جفّتْ لأربعينَ عامًا، وهنا تكونُ نهايةُ الحبكةِ مفتوحةً، من خلال الانفتاحِ، أيضًا، على أبعادٍ سرديّةٍ غيرِ مكتوبةٍ،

ممثّلةً في مواجهةِ أطماعِ الرّومِ والفرسِ بعدَ سقوطِ حكمِ (الوبّاص)، الذي اتّخذَ من مواجهتِهما حجّةً للهيمنةِ.

صيغتِ الحبكةُ بينَ الرّاوي المشارك (شيحان) والرّاوي العليم، فمعرفتُهما متماثلةٌ على صعيدِ بناءِ الأحداثِ وتدرّجِها في صياغةِ الحبكة، فارتسمت الحبكةُ من خطوةِ (شيحان) الأولى بتقديمِ نفسِهِ طواعيةً لأهلِ الحرجف، عارفًا ما سيترتّبُ عليها من أحداثٍ تالية، فالخطوةُ رؤيتُه وترتيبُه، أمّا الرّاوي، فتطوّعَ بتأثيثِ النّصّ، وتقديمِ الشّخصيّاتِ والأفضيةِ، وإضاءةِ الغامضِ والمغلقِ من الأحداثِ، من خلال تقنياتِ السّردِ، فكانَ للاسترجاعِ وظيفةُ الكشفِ عن الأحداثِ المفضيةِ لخلقِ الذّرواتِ، وكشفِ الأسرارِ، مثل: مقتل (حنظلة بن عمران)، وهو سرُّ الصّراع بينَ الحرجف والجوازل، في "حوار شيحان مع الجاسم"[1]، فقد اكتشفَ والدُ (شيحان) و(حنظلة) الماءَ قربَ شجرة النّذيرة، ما حفَّزَ (حنظلة) لإبلاغِ (الضّامر) أبي (الوباص)، ومانَعَهُ (صخرٌ)؛ وأيضًا، تاريخ (شيحان) وأخته (بدور) عندَ أخوالهم، وبعدَ عودتِهما لمدينةِ أبيهم الجوازل[2].

كذلك الحذفُ والتّلخيصُ لمراحلَ زمنيّةٍ ممتدّة، فيكتفى بتقديمِ ما يخدمُ السّردَ، مثل: مرّت الأيّامُ والشّهور، كذلكَ قصّةُ جفافِ "شجرة النذيرة"[3]، ومنه تلخيصُ السّاردِ العليمِ لفصولٍ كثيرةٍ، وتحديدًا في الصّفحة مئتين وستّ وسبعين، وأدّتِ الوقفاتُ الوصفيّةُ: الأمكنةُ، والمعاركُ، والحواراتُ المتنوّعةُ والمتعدّدةُ أدوارًا كاشفةً لعوالمِ النصّ، بينَ وظيفتي التّلخيصِ أو الاسترجاعِ أو التّزامنِ الواقعيّ للنصّ المسرودِ – زمنِ النّصّ وزمنِ الحدثِ.

ثمّةَ تباينٌ واضحٌ بينَ زمنِ النصّ وزمنِ الحدثِ، وتلكَ أبرزُ مقتضياتِ بناءِ الحبكةِ؛ فزمنُ الأحداثِ النّصيّةِ المسرودةِ عامٌ ونصفُ العامِ، وزمنُ الحكايةِ التّاريخيّةِ يفوقُ السّتينَ عامًا، ما يعني أنَّ الاشتغالَ السّرديَّ في بناءِ الحبكةِ محكمٌ ودالٌّ، فمنذُ بدايةِ الرّواية حتّى الصّفحة(280)، كان زمنُ الأحداثِ النّصيّةِ سبعةَ أيّام، ومنها للصفحة (340) بعدَ اثنتينِ وسبعينَ صفحةً عامٌ واحدٌ؛ وستةُ أشهرٍ حتّى بلوغِ نهايةِ الرّوايةِ صفحة(349)؛ فمساحةُ الزّمنِ التّاريخيّ في الرّوايةِ أكبرُ من مساحةِ الزّمنِ النّصيّ – زمنِ الأحداثِ الفعليّةِ بثلاثةِ أضعافٍ؛ ما يؤكّدُ فاعليّةَ التّشويقِ عنصرًا سرديًّا، يمنحُ الحبكةَ هُويتَها، كما تمنحُ الحبكةُ العملَ السّرديَّ هُويّتَهُ من جهة، ويكشفُ أنّ زمنَ السّلطةِ ومآلَها بينَ النّصيّ والتّاريخيّ مفارقٌ

(1) راضي، *الوباص*، ص54.

(2) راضي، *الوباص*، ص58–86.

(3) راضي، *الوباص*، ص54.

وشاسعٌ من جهة أخرى، فمهما امتدَّ حضورُها في التّاريخِ تُختزَلُ نصيًّا بمنطقِ الأحداثِ، فمآلُها في التّاريخِ الذّبولُ والانطفاءُ والانتهاءُ، وفي النّصّ الإشراقُ والتّجدّدُ والابتداءُ.

الصّراعُ بينَ الطّباقِ والوفاقِ

يشكّلُ الصراعُ أنساقَ التّوتّراتِ النفسيّةَ وخرائطَ الشّخصياتِ الذّهنيةَ، من خلال ملفوظاتِ الشّخصيّاتِ وأفعالِها وانفتاحِها على الذّاتِ الحميميةِ وآخرِها المُعادي؛ ما يكشفُ موروثَ الشّخصيات، ويعزّزُ بنيةَ الحبكةِ، ؛ فتفتحُ السّلطةُ بوابةَ الصّراعِ للشّروعِ بالتّحوّلاتِ، من مبدأ أنَّ "كل ما هو سلطوي سلب لما هو فردي وشخصي"[1]، حيثُ تشكّلُ السّلطةُ أداةَ حجبٍ للذّاتِ الفرديّة، وقهرٍ لها في آنٍ معًا، إذ تتشكّلُ وتتحرّكُ، بوصفِها منظومةَ قمعٍ ونفي لكلّ حركةٍ فرديّةٍ مجابهةٍ لها، وهو ما يظهرُ في حلفِ الملك (الوبّاص)، وحلفِ (شيحان)، حيثُ تكونُ السّلطةُ في مواجهةِ وعي الشّخصياتِ براهنِها ومصيرِها؛ ما يفرضُ عليها اتّخاذَ موقفٍ بينَ الطّاعةِ والموالاةِ أو الرّفضِ والمُجابهةِ.

إنَّ الصّراعاتِ الوفاقيّةَ تنبني على منظومةٍ اتّساقيّةٍ لخلفيّاتِ الشّخصيّاتِ الاجتماعيّةِ والثّقافيَّةِ، ما يجعلُها تنصهرُ في مَشهديّةٍ ذاتِ عناوينَ ثابتةٍ، لكنَّها تحملُ جينَ صراعِها لحظةَ انبناءِ وفاقِها، ونموذجُها الجذريُّ يتمثّلُ في علاقةِ الملك (الضّامر) وابنِه الملك (الوبّاص) معَ أسيادِ الحرجفِ والقلباءِ وأوهدَ وشيار، فعلاقتُهم قائمةٌ على سيرةِ التّابعِ والمتبوعِ، وإنْ تشكّلتْ على الطّاعةِ في بدايتِها، فإنَّها تنتهي على صورةِ الخِلافِ والإقصاءِ والقتلِ، بعدَ أنِ انْفضُّوا عن (الوبّاص)، وتركوهُ يواجِهُ محنتَهُ وحدَهُ، لتكونَ القطيعةُ هي لغةَ الحدثِ دونَ فائضٍ استعاريّ.

أمَّا الصّراعاتُ الطّباقيةُ، فتنبني على منظومةٍ فراقيّةٍ لخلفيّاتِ الشّخصيّاتِ الاجتماعيَّةِ والثّقافيَّةِ، ما يجعلُها تتصارعُ في مَشهديَّةٍ ذاتِ عناوينَ مُتضادَّةٍ، لكنَّها تحملُ جينَ وفاقِها لحظةَ انبناءِ فراقِها، ونموذجُها الجذريُّ (شيحان) وسادةُ الحرجفِ: (الغازي) و(الجاسم)، فبينَما كانَ (شيحان) مقصيًّا ومنبوذًا وسطَ أخوالِهِ لجنايةِ أبيه، ومقصيًّا في مدينتِهِ الجوازلِ آنَ عودتِهِ إليها، إذْ تسيَّدَ أخوالُهُ (الجاسم) و(الغازي) الحرجفَ، وأذاقُوا أهلَ الجوازلِ مرارةَ الحروبِ لستّينَ عامًا، لينتهي الصّراعُ بمعاهدةِ صلحٍ بينَ الجوازلِ والحرجف؛ فتكون وحدةُ المصيرِ هي لغةَ الحدثِ دونَ فائضٍ استعاريّ؛ لكنَّ لفلسفةِ التّاريخِ رأيًا مضادًّا، يقومُ على أنَّ الصّراعاتِ خُلقت لتستمرَّ لا لتتوقّفَ، لينكشفَ مشهدُ جغرافيا رأس الخيل بأكملِها على صراعٍ تاريخيّ ووجوديّ قديمٍ جديدٍ، هو الصّراعُ معَ الفرسِ والرّوم، ذاكَ الصّراعُ الذي زعمَ (الوبّاصُ) أنّهُ يحمي منطقةَ رأس الخيل منهُ.

(1) الشيخ، محمد: *المثقف والسلطة: دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر*، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991، ص29.

الإيقاعُ السّرديُ ودلالاتُهُ.

يعدُّ الإيقاعُ السّرديُّ أحدَ مناظيرِ الرّؤيةِ السّرديّةِ في بناءِ السّردِ والحبكةِ، إذ يكشفُ التّوتراتِ النّفسيّةَ للشّخصيّاتِ، ويسهمُ في بنيةِ الأحداثِ حركةً وسكونًا، من خلالِ التّناظرِ أو التّباينِ أو التّقاطعِ أو المُفارقات، من ذلك: كمّ الأحداث وعدد الشّخصيّات، فثمّة اختلافٌ وتباينٌ بينَ عدد شخصيّات مدينة الحرجف الثّلاثين، وشخصيّات مدينتي شيار وأوهد: شخصيّتين، إنّه إيقاعٌ طباقيٌّ يكشفُ فاعليّةَ الشّخصيّة في إضاءةِ الأمكنة، ودورِهِ في صنع الأحداث وتحريكِها، بالمقابلِ انبنتْ مدينةُ (شيحان) الجوازل، ومدينة (الوبّاص) العصوف على التّناظر في عدد الشّخصيات، وهذا الإيقاعُ في كمّ الأحداث وعدد الشّخصيّات أدّى أدوارَهُ الوظيفيّةَ في خدمةِ الرّؤيةِ السّرديّةِ.

ومنْ ذلكَ، التّناظرُ المفارقُ لطبيعةِ الحدث، فهذا (شيحان) يمكثُ في سجن الغازي في الحرجف بأمرِ الجاسم: "اتخذ الجاسم القرار، وجعل الرجال يكبلون قدمي شيحان، ويودعونه السجن"[1]، و(الغازي) ذاتُهُ في سجن العصوف لدى (الوباص): "الغازي وباقي رجالنا سجناء في العصوف"[2]، في ذات التّوقيت، يقدمُهما السّاردُ عبرَ تقنية "المونتاج المتوازي مكانيا"[3]، كلاهما أسيرُ رؤيتِهِ، ونتاجُ فعلِهِ، يتناظرانِ في الموقع، ويتبايناننِ في المشهدِ النفسيّ، وحتمًا، سيتقاطعانِ في المصيرِ، فبينَما يُؤْسَرُ (الغازي) غدرًا، يسيرُ (شيحان) لذلك طوعًا، تبعًا لاختلافِ الرّؤى بينهما، وبينما يتمُّ تحريرُ (الغازي) على يدِ (شيحان)، وهو في معتقلِهِ، عن طريقِ ابنِهِ (الليث) بكشفِ سرِّ السِّردابِ، يُحرِّرُ (شيحان) نفسَهُ بحكمتِه وحنكتِه، وقدرتِه على صناعةِ الحدثِ، وإحكامِ الحبكةِ.

وعلى مستوى السّكونِ والحركةِ في الحدثِ، نشهدُ كثافةَ الأفعالِ المحفّزةِ للسّرد تتوالى في مشاهدِ القتالِ، لقيامِها على عنصرِ الحركةِ المستمرّةِ: "تقدم، قطع، أسقط، تبعها، غرس، ووضع، أخرج، زأر"[4]، بينَما يهيمنُ الصّمتُ والهدوءُ على مشاهدِ السّجنِ: سجنِ (الغازي)، وسجنِ (أصهب)، وسجنِ (شيحان)، الذي "جلس على سريره، مسندا رأسه إلى الحائط"[5].

(1) راضي، *الوباص*، ص 22.

(2) راضي، *الوباص*، ص 101.

(3) ينظر: الحاج علي، هيثم، *الزمن النوعي وإشكالات النوع السردي*، ط1، مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، القاهرة، 2023، ص208.

(4) راضي، *الوباص*، ص 297.

(5) راضي، *الوباص*، ص 117.

ثانياً: هَندسةُ المَكانِ وديناميكيَّةُ الفاعلِ السَّرديّ

لا يمثّلُ المكانُ في رواية "الوبّاص" جغرافيا أو مواضعَ لتمريرِ الحدث، بل إنّهُ "لا يتشكّل إلا باختراق الأبطال له، والأحداث التي يقوم بها الأبطال"[1]، فالمكانُ يتأسّسُ في علائقيّةٍ موسَّعةٍ معَ الشّخصيَّاتِ، بوصفِها فاعلًا سرديًّا، لخلقِ سلسلةِ الأحداثِ وترابطِها وتناميها؛ ما جعلَ المكانَ إشكالًا معرفيًّا ووجوديًّا في خطابِ "الوبّاص" الرّوائي، تمَّ طرحُ الإشكالِ المعرفيّ بالسَّردِ في صيغةِ حدثٍ تساؤليٍّ صراعيٍّ لمقولاتِ السُّلطةِ والهيبةِ؛ أمّا الإشكالُ الوجوديُّ، فتوالتْ أسئلتُهُ في نسجِ العلاقاتِ بينَ الشّخصيَّاتِ والأمكنةِ لتشكّلَ إجابةً مقترحةً حولَ سؤالِ المَصيرِ.

المَكانُ المَفتوحُ بينَ التَّراتُبيَّةِ والتَّناظُرِ.

افتتحَ الرّوايَ العليمُ سرديَّتَهُ على فضاءاتِ منطقةِ رأس الخيل، ليسَ بوصفِها جُغْرافِيَةَ مسرحِ الأحداثِ وفاعلَهُ السَّرديَّ فحسبْ، بلْ بوصفِها موطنَ الإشكالاتِ معرفيًّا ووجوديًّا، ما جعلَ السّردَ يتّجهُ صوبَ خلقِ بؤرِ توتُّرٍ سرديٍّ مركزيّةٍ: العصوف، الحرجف، الجوازل، وأخرى مساندة: القلباء، شيار، أوهد، تشتبكُ في ما بينَها لخلقِ مستوياتٍ متنوّعةٍ من التّراتبيّةِ الطّبقيَّةِ والتَّماثليَّةِ والتَّناظريَّةِ التَّضاديَّةِ لحملِ فلسفةِ المكانِ وروحِهِ.

فثمَّةَ تراتبيّةٌ سياسيّةٌ واقتصاديّةٌ وعسكريّةٌ واجتماعيّةٌ بينَ تلكَ المدنِ، تمثّلُ فيه العصوفُ رأسَ التراتبيّة، لكونِها موطنَ الثّقلِ العسكريّ: القائدِ (دحّام)، وصناعةِ القرارِ السّياسيّ: الوزيرِ (شامان)، فضلًا عن رمزيّةِ القصر: قصرِ الملكِ (الوبّاص)، وليسَ أدلُّ على ذلكَ من قدرتِها منحَ الماءِ وحجبَهُ عن كافّةِ المدنِ، ما يجعلُها رهينةَ العصوف في وجودِها، تليها رتبةً الحرجفُ بإمكاناتِها ودعمِها مركزَ صنعِ القرار، واحتوائها على فواعلَ سرديّةٍ مكّنتها من حسمِ موقعِها في الصّراعِ بثلاثينَ شخصيّةً في السّردِ، أبرزُها الدّاهيةُ (زيد بن عباد)، ثمّ الجوازلُ بقيادةِ زعيمِها (شيحان)، رغمَ تكبيدِها خسائرَ فادحةً على مدى ستّينَ عامًا في حربِها مع الحرجفِ بثلاثٍ وعشرينَ شخصيّةً، ثمَّ القلباءُ بقيادةِ (الزّعزاع بن حمزة) وأخيه (الفزّاع)، التي ظهرتْ بوصفِها حاميةً عسكريّةً مساندةً للمركزِ العصوف، تليها شيار وأوهد دونَ ذكرِ شخصيّاتٍ مساندةٍ سوى (عاذل بن شيار)، ما يضعُهما في دائرةِ التّماثلِ المكانيّ شبهِ المُطابقِ.

تكشفُ التراتبيّةُ جوهرَ خطابِ السّردِ في كشفِ مقولاتِ السّلطةِ وميكانيزما قوّتِها، وتمثُّلِها لخطابِ الهيبة، الذي تنامتْ قوّتُهُ في لاوعي الشّخصيّاتِ والأمكنةِ، لتخضعَ وفقَ منطقِ الهيمنة؛ غيرَ أنَّ للسّردِ طرائقَه، وللحبكةِ فلسفتَها في قلبِ بنيةِ التّراتبِ من خلالِ قدرةِ الفواعلِ السّرديّةِ على قراءةِ خطابِ السُّلطةِ

(1) بحراوي، حسن، *بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)*، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ص120.

المُهيمنةِ، وإعادةِ إنتاجِهِ لمصلحةِ التّناظريّةِ الضّديّةِ أو الاستقطابِ، إذْ تكفَّلَ (شيحان) سيّدُ الجوازلِ بقراءةٍ ترميزيّةٍ ذهنيًّا وماديًّا للصّراعِ من خلالِ نسجِ الحبكةِ، وأسعفَهُ (زيد بن ثابت) الحرجفيُّ بفكِّ شيفراتِها، والخلوصِ لمنطقِ الرّؤيا التي يطمحُ النصُّ لبلوغِها.

انقلبتِ التراتبيّةُ لمصلحةِ رؤيا التّناظر أو الاستقطابِ، فلأوّلِ مرّةٍ ينكشفُ "الصّباح عابسًا كئيبًا في مدينة العوصف، عكس ما كان في مدينتي الحرجف والجوازل"[1]، فالنّسماتُ العليلةُ التي نزلتْ على المدينتَيْنِ، أصبحتْ زمهريرًا على (الوبّاص بن ضامر) في قصره الحصين بينَ حاشيتِه الكبيرةِ، وما أنْ يسقطَ القصرُ الحصينُ حتّى تسقطَ معَهُ التراتبيّةُ ومقولاتُها السّلطويّةُ، ليُنْتِجَ جدلُ التّراتبِ والتّناظرِ مقولاتِهِ الجديدةَ للمكانِ وشخصيّاتِهِ، ليسَ لمدينةٍ بذاتِها، وإنّما لمنطقةِ رأسِ الخيلِ بأكملِها.

المكانُ المُغلقُ وكثافةُ التّرميزِ.

حضرتِ الأمكنةُ المغلقةُ بكثافةٍ ترميزيّةٍ عالية، بوصفِها مفاتيحَ دالّةً لكشفِ هندسةِ المكانِ الوظيفيّةِ، وأفقًا لاشتغالِ الشّخصيّاتِ وحركتِها، وأنظمةً دلاليّةً متوازيةً ومتقاطعةً، فثمّةَ أماكنُ متوازيةٌ، مغلقةٌ علويّةٌ: القصرُ، والمجلسُ، والحانةُ، والدّكانُ؛ وأماكنُ مغلقةٌ سفليّةٌ: السّجنُ، والسّردابُ، والبئرُ؛ وثمّةَ مكانٌ يشكّلُ بؤرةَ التّقاطعاتِ والتّداخلاتِ للشّخصياتِ والأمكنةِ، إنَّهُ بؤرةُ التّضادِّ لعالمَيْنِ: عالمِ الحياةِ، حيثُ الماءُ والخضرةُ والحبُّ؛ وعالمِ الموتِ، حيثُ العطشُ، والجفافُ، والكراهيةُ، ممثّلا بشجرةِ النّذيرةِ.

يحضرُ القصرُ والمجلسُ في الأمكنةِ المغلقةِ العلويّةِ، بوصفِهما سلطةً سياسيّةً عليا، وقمّةَ الهرمِ التّراتبيّ في المجتمعِ، للمجلسِ في الحرجفِ الرّأيُ والقرارُ، وللقصرِ في العصوفِ إرادةُ الإخضاعِ والتّنفيذِ، بينَما تنفتحُ الحانةُ على صورةِ اللّهو الاجتماعيّ، خلافًا لدكّانِ الحدادةِ، الذي يمثّلُ وجهًا صناعيًّا اقتصاديًّا؛ وجميعُها تمثّلُ حركيّةَ المجتمعِ الظاهرةَ على السّطحِ، وتكشفُ بعضَ العلائقِ معَ الباطنِ، فالقصرُ رهنُ حياكةِ المؤامراتِ للهيمنةِ على منطقةِ رأسِ الخيلِ، ومجلسُ الحرجفِ رهنُ التّحوّلاتِ واختلافُ القراراتِ، والحانةُ صورةُ الإرادةِ المستلبةِ والطّاقاتِ المبدَّدةِ، ودكّانُ الحدادةِ متكفّلٌ بتشكيلِ شخصيّةِ (شيحان) وصياغتِها، حيث كانَ عاملًا لدى آزاد في صناعةِ السّيوفِ في الحرجف، واستمرَّ بعدَها في الجوازل، تعلَّمَ من خلالِها الحكمةَ والصّبرَ، لتشكّلَ الدّكانُ دورَها في قلبِ الأحداثِ، وتغييرِ هويّةِ الأمكنةِ المغلقةِ العلويّةِ في سياق السّرد، لتطيحَ بالقصرِ، وتغيّرَ هويّةَ المجلسِ، وتجعلَ من السّكارى أقوى كتيبةٍ قتاليّةٍ.

(1) راضي، *الوباص*، ص 257.

أمّا الأماكنُ المغلقةُ السّفليّةُ، فإنَّها، على توازيها مع الأمكنةِ المغلقةِ العلويّةِ تتعالقُ معَها، وتشكّلُ لبناتٍ أساسيّةً في بنيةِ الحبكة، وتؤسّسُ مفارقةً دلاليّةً للموتِ والحياة؛ فيتحوّلُ "السّردابُ السّريُّ"[1] في قصرِ (الوبّاص) الذي يربطُ القصرَ بخارجِه نقمةً عليهِ، فبعدَ أنْ أحاطَهُ بالسّريّةِ، ليكونَ مصدرَ نجاتِهِ، ينكشفُ سرُّهُ لـ(شيحان) من (نهلان) أحدِ عمّالِ (الوبّاص)، ويتّخذُهُ لَبِنَةً في بناءِ حبكتِهِ بكشفِ سرِّهِ لابنِهِ (اللّيث)؛ ليفكَّ أسرَ (الغازي) زعيمِ الحرجفِ من سجنِ الوبّاص، وينجحُ في ذلكَ، فيطيحُ السّردابُ بالقصرِ الذي يعلوهُ؛ والسّجنُ، بوصفهِ علامةً سيميائيةً، تنوّعَ بينَ العصوفِ والحرجفِ، فهناكَ يُسجنُ (الغازي) من قبلِ (الوبّاص) بتدبيرِ (شيحان)، ويُفَكُّ أسرُهُ، أيضًا، بتدبيرِهِ، وهنا، في الحرجفِ يُسجَنُ (شيحان) بإرادتِهِ، عندَما دخلَها لعقدِ صلحٍ معَها.

لكنَّ تناظرًا ضديًّا بينَ حاليهما: "في الوقت الذي دخل فيه قيس بن الجاسم زنزانة شيحان حاملًا طبقًا من الطعام بنفسه، اقتحم حراس الوباص مع كبيرهم شداد زنزانة الغازي، فأيقظوه بفضاضة وتعنيف"[2]، فبينَما يقبعُ (الغازي) مهانًا حتّى يُفَكُّ أسرُه من قبلِ (شيحان) السّجينِ الآخرِ في زنازينِ مدينتِهِ في تبادُلٍ ضمنَ علاقةِ الضّديّةِ: العبوديَّةِ والحريّةِ؛ يتنقّلُ (شيحان) بينَ العالمَيْنِ: السّفليّ والعلويّ: السّجنِ والمجلسِ، ليعيدَ رسمَ الأحداثِ، ويفكَّ العقدَ المتواليةَ؛ ولكنّه يتحرّكُ وفقَ مستوى ما تحت التَّضادّ، فلا هو حرٌّ، ولا هو عبدٌ: اللّاحريّة واللّاعبوديّة؛ وهذه إحدى المفارقاتِ التي يصنعُها العالمُ السّفليُّ المغلقُ؛ بالنّظرِ إليها في ضوءِ المربعِ السّيميائيّ[3]، الذي ينقلُنا من التّقابلاتِ إلى شبكةِ العلاقاتِ وتداخلاتِها، من خلال الشّكلِ التّالي:

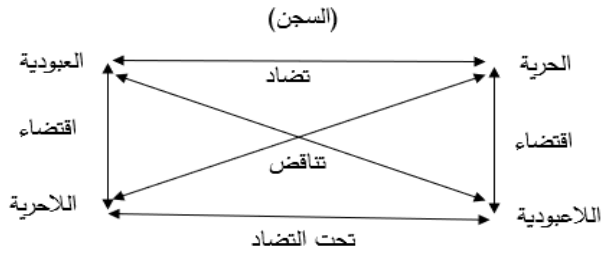

تكونُ البئرُ في احتوائِها الماءَ أداةَ هيمنةِ (الوبّاص) على أهلِ رأسِ الخيرِ بمنعِها الجريانَ إنْ أرادَ، فيكونُ عنصرُ الموتِ المتربّصُ بوجهِ عُصاتِهِ؛ بينَما ينقلبُ وادي الرّبيع إلى وادي الخريف أو الأبيض

(1) راضي، *الوباص*، ص 173.

(2) راضي، *الوباص*، ص 160.

(3) ينظر: غريماس، أ.ج، وكورتيس، ج، *المنهج السيميائي: الخلفيات النظرية وآليات التطبيق*، ترجمة عبد الحميد بورايو، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2014، ص87-95.

بعدَ هزيمةِ جيوشِ العصوفِ في المعركةِ الكبرى من قبل الحرجفِ والجوازل، فتكونَ الضّربةَ الثانيةَ التي يتلقّاها (الوبّاص).

إنّ الأمكنةَ المغلقةَ السّفليّةَ، بقدرِ ما تبدو عوالمَ سالبةً: الموتَ والعتمةَ والعطشَ، فإنَّها تتكشّفُ سرديًّا بصفتِها مانحةً: الحياةَ والضّوءَ والسُّقيا، فالسّردابُ نجاةٌ، والسّجنُ حريّةٌ، والبئرُ حياةٌ، وما أصابَ وادي الربيع من خريفٍ ما هو إلا إعلانٌ لولادةٍ قادمةٍ، وتلكَ أبرزُ مفارقاتِ الأمكنةِ الدلاليّة. أمّا شجرةُ النّذيرة، التي "تضرب جذورها رأس الجبل العالي بين مدينتي الجوازل والحرجف، ... وتحتها أخذت العهود وقُدِّمت النذور"[1]؛ فتأخذُ تحوّلاتِها على صعيدِ الوجودِ والتّسميةِ، بمرويّتَيْنِ، أولاهما: أنَّ الشّجرةَ كانتْ مثمرةً ظليلةً، ومزارًا ومعتكفًا ليومٍ في العامِ لأهلِ رأس الخيل، غيرَ أنَّ الملكَ (الضّامر) أطلقَ سهمًا فأصابَها، فتحوّلتْ إلى اليباسِ؛ والثّانية، تسميتُها: تحوّلتْ من شجرةِ النّذيرةِ إلى شجرةِ المجنونِ، نسبةً إلى الرّجلِ الذي صعدَ، وعلّقَ منديلًا أحمرَ أعلى غصنٍ فيها.

وكلا المرويّتينِ تكشفانِ الذهنيّةَ الطّقوسيَّةَ والعاطفيّةَ لأهلِ رأسِ الخيل، اللّتينِ تحتكمانِ للشّجرةِ بوصفِها المقدّسَ: الدّينيَّ وقتَ الخُضرة، والعاطفيَّ بعدَ الجفافِ؛ وفعلُ (الضّامرِ) طوى وابنُه (الوبّاص) بَعْدَه الدّينيَّ في فلكِ السّياسيّ، ولا يجابهُهُ غيرُ فعلِ (شيحان)، في صعودِه شجرةً يعلّقُ عليها المنديلَ الأحمرَ علامةَ الوفاءِ العاطفيّ (لآرام بنت آزاد)، علامةً ظلّتْ معلّقةً لأربعينَ عامًا، لتتحوّلَ الشّجرةُ الجافّةُ إلى رمزيّةٍ عاطفيّةٍ لدى مجتمعِ رأسِ الخيل.

إنّ سيرةَ الشّجرةِ وعلائقَها النّصيّةَ تفتحُ للتّحوّلاتِ مساحاتٍ جديدةً، إذْ تكونُ مكانًا لاستقبالِ (الغازي) آنَ تحريرِهِ من سجنِ (الوبّاص)، ومكانًا للمصالحةِ بينَ الحرجفِ والجوازل، وطاقةَ خصبٍ للحياةِ بعدَ كشفِ سرِّ وجودِ الماءِ وغزارتِهِ قربَها، ومكانًا لمعاهدةٍ كُبرى بينَ جميعِ أسيادِ رأسِ الخيلِ بعدَ إنهاءِ حكمِ (الوبّاص)، وتستمرُّ سيرتُها، في آخرِ جملةٍ سرديّةٍ من الرّواية، بورقةٍ خضراءَ على أحدِ أغصانِها؛ ما يجعلُها مركزَ شبكةِ العلاقاتِ الدلاليّةِ المتآلفةِ والمتضادّةِ.

ثالثًا: التّشاكلاتُ النصيّةُ وأنظمةُ الدّلالة.

يؤسّسُ السّردُ شبكةً علائقيَّةً بينَ عناصرِهِ البنائيّةِ، تنتجُ المعنى وتفتحُهُ على آفاقِ التلقّي والتّأويل؛ ليظلَّ المعنى مسكونًا بالتّفلُّتِ ما لمْ يُقرأْ في سياقِ البنيةِ الدّلاليَّةِ العميقةِ للنّصّ، بما هي "الخزان الثّقافي الذي يتحكم لاحقًا في أشكال تحقق السّلوكات المخصوصة"[2]، وهو ما يمكنُ قراءتُهُ بالتَّشاكُلِ بوصفِهِ ممارسةً إجرائيَّةً تقبضُ على شكلِ المَضمون، وتسبرُ أغوارَ النّصّ، من خلالِ المقوّماتِ الذّاتيَّةِ والسّياقيَّةِ

(1) راضي، *الوباص*، ص 53.

(2) بنكراد، سعيد، *السميائيات السردية: مدخل نظري*، ط1، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2001، ص 44.

للوصولِ إلى التّقابلاتِ بينَ عالمَيْنِ[1]، بالنَّظرِ إلى أنَّ كلَّ عالمٍ أو قطبٍ دلاليٍّ، يتشكّلُ بناءً على تواترِ علامةٍ لغويَّةٍ أو سياقيَّةٍ وتكرارِها، ما يجعلُ رصدَها وتنظيمَها وسبرَها رهنَ قراءةِ التَّشاكُلات.

وتتنوّعُ العلاماتُ اللّغويّةُ والسّياقيّةُ في روايةِ "الوبّاص"، لتشكّلَ في ما بينَها بنى دلاليّةً عميقةً في النّصّ، تُقْرأُ في سياقاتِ الخطابِ الحضاريّةِ والثّقافيّةِ؛ في محورَيْنِ: محورِ سيمياءِ الأهواءِ من خلالِ عاطفتَي الحبِّ والكراهيةِ، ومحورِ جدلِ الثّقافيّ والطّبيعيّ ممثَّلًا في الأسرارِ والرّسائلِ والرُّؤى، والماءِ والدّم؛ وكلاهما ذو طبيعةٍ حركيّةٍ في السّردِ، تتنامى، وتتفاعلُ، لتضيءَ عوالمَ الشّخصيّاتِ، وتفتحُ للحبكةِ بواباتِ التّصعيدِ والانفراجِ، وتتعالقُ معَ سياقِها الثقافيّ والحضاريّ.

سيمياءُ الأهواءِ: خريطةُ الذّواتِ الانفعاليّةِ.

تشكّلُ العواطفُ والمشاعرُ والأحاسيسُ أرضيّةً مثاليّةً للحسِّ الإنسانيّ والأخلاقيّ السَّوي، غيرَ أنَّ اصطدامَها بحالاتِ الاعتدالِ السّوسيو ثقافيّ القارِّ في ثقافةٍ ما، وتخطّيها، ينقلُها إلى حالةِ الفائضِ الانفعاليّ، ما نسمّيه الهوى أو الأهواء، فتتحوّلُ من سياقِ القبولِ إلى الرّفضِ، إنَّها تنتظمُ في وحداتٍ معقّدةٍ، تبدأُ بالاستهواءِ كقوّةٍ انفعاليّةٍ كامنةٍ، وتمرُّ بتوتّراتٍ وتصعيداتٍ، فتبلغُ مصيرَها: انشطارًا استهوائيًّا يقودُ إلى حالةِ اللّاتوازنِ، ما يجعلُ الأهواءَ مقروءةً، بوصفِها محتوى تركيبيًّا ودلاليًّا[2].

حيثُ تزخرُ روايةُ "الوبّاص" بالمشاهدِ الإنسانيّةِ المتعارضةِ، وتتقاطبُ في عالمَيْنِ: الحبِّ، والكراهيةِ؛ وهما طاقتا تحريضٍ هَوَويٍّ، يبلغُ ذروتَهُ في مشاهدَ دمويّةٍ ساخنةً، والمفارقةُ في السّياقِ السّوسيو ثقافيّ تجنّبُهُ الحيادَ في اصطفافاتِه، فينحازُ إلى لغةٍ دمويّةٍ، سواءٌ تعلّقَ الأمرُ بتشاكلاتِ الحبِّ أو تشاكلاتِ الكراهيةِ.

الحُبُّ:

إنَّ عاطفةَ الحبِّ، التي تتشاكلُ نصيًّا بعلاماتِها الذّاتيةِ والسّياقيةِ: الرّغبةِ، والغيرةِ، وثنائيةِ الحزنِ والفرحِ، والوصالِ والفراقِ؛ تتمرأى في علاقةِ (هند) و(قصيّ)، و(شيحان) و(آرام)؛ لقد تملّكَ الحبُّ (هند بنت الوبّاص) و(قصيّ بن الغازي)، ولم تبقَ العاطفةُ رهينةَ سياقِها القِيَمِيّ، فكانَ الاستهواءُ مستحكمًا؛ ما جعلَ مصيرَ العاطفةِ يذهبُ باتّجاهِ الانشطارِ الاستهوائيّ، ويبرزُ بصفتِهِ هوًى، عندَ هروبِها وتركِها

(1) ينظر، مفتاح، محمد، *التلقي والتأويل: مقاربة نسقية*، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994، ص150-160.

(2) ينظر: ج. كريماس، ألجيرداس، وفونتنيي، جاك، *سيميائية الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس*، ترجمة سعيد بنكراد، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص 45- 70.

"قصرها وملكها ونعيمها من أجل عشقها وهيامها"[1]، ثمَّ تؤكّدُ استحكامَ الهوى برسالةِ رغبتِها بـ(قصيّ)، بما تمثّلُهُ من كسرِ الاشتراطاتِ الثّقافيةِ والمكانةِ السياسيّةِ لوالدِها؛ إشارةً إلى بدايةِ تصدُّعِ مشروعِ (الوبّاص) السّياسيّ، بانفلاتِ الحميميّ والخاصّ من عالمِهِ للآخرِ، وإلماحًا فصيحًا لتآكُلِ الهيبةِ، بما هي قوّةٌ في الخطابِ، خاصّةً في مشاهدِ حيرةِ (الوبّاص) أمامَ هذهِ الأزمةِ.

وليسَ أدلُّ على استحكامِ الهوى من علاقةِ (شيحان) بـ(آرام بنت آزاد)، فتلكَ العلاقةُ الحميميّةُ أصبحتْ سيرةً غيرَ معلَنةٍ للمجنون، بإشارةِ المنديلِ المعلَّقِ على شجرةِ النّذيرةِ منذُ أربعينَ عامًا؛ لتصبحَ الشجرةُ أيقونةً عاطفيّةً في فضاءِ رأسِ الخيلِ، تكشفُ حالةَ الانشطارِ الاستهوائيّ في تناميه، وتوتّرِهِ، ليصلَ بـ(شيحانَ) إلى قتلِ زوجِ محبوبتِهِ، عندَما قامَ زوجُها "بطردها..، وتركها في العراء مع طفلة صغيرة"[2]، لكنّ (شيحان) لم يسألْ عن أحوالِها بعدَ ذلكَ، وهي من فعلتْ، إذْ أخبرتْهُ: "لما قتلت زوجي، حملت نفسي واليتامى، وركبت قافلة توصلني إليك، فما وصلتك إلّا ليلة زفافك"[3].

ثمّةَ كلماتٌ مفتاحيّةٌ تَقرأُ حقيقةَ عاطفةِ (شيحان) النزّاعةِ للتّملُّكِ، في قولِ (آرام): "قتلتَ، زَوْجي، اليتامى"؛ ثمّ يأتي زواجُ (شيحان)، ما يحملُ طابعَ الإدانةِ المسبقةِ غيرِ المعلنةِ، ثمَّ لقاؤها بعدَ سلسلةِ مراسلاتٍ توسّطَها (سِوار)، أفضتْ إلى طلبِ يدِها للزّواجِ، وإضافتِها إلى زوجةٍ أولى؛ دونَ اعتراضِ الأخيرةِ، هذهِ الأحداثُ تميلُ لكونِ عاطفةِ (شيحان) مسكونةً بالغيرةِ والتّملُّكِ، ولو اقتصرتْ عاطفةُ الحبِّ على حزنِ الفراقِ وفرحِ اللّقاءِ، دونَ هوى دمويّ أو زواجٍ لاحقٍ، لظلَّتْ عاطفةُ الحبِّ محافظةً على تساميها، بوصفِها عاطفةً إنسانيّةً نبيلةً وسويّةً.

الكراهية

أبرزُ المفارقاتِ اللّسانيةِ أو الذّاتيةِ، في النصِّ الرّوائيّ، أنَّ كلمةَ الكراهيةِ لمْ تحضرْ، لكنَّ مصاحباتِها حضرتْ بقوّةٍ، ما يجعلُها هوًى ملازمًا للحدثِ، صنيعتَهُ حينًا، ونتيجتَهُ حينًا، وذلكَ بتشاكلِ مصاحباتِها النّصيّةِ والسّياقيّةِ: الغضبِ، والانتقامِ، والشّماتةِ، والخيانةِ، والقتلِ، وغيرِها.

من ذلك الغضبُ، وهو شعورٌ طبيعيٌّ يطرأُ في حدثٍ معاكسٍ لإرادةِ الذّاتِ، غيرَ أنّه إذا تطوّرَ، وبلغَ ذروتَهُ، يتّجهُ إلى خلقِ مشهدٍ دمويّ، فيخرجُ عن طورِ الطّبيعيّ إلى الانشطارِ الاستهوائيّ، فيبرزُ بوصفِه هوًى، كسرَ حاجزَ الزّمنِ، معبّرًا عن ذاتِهِ بتسارعٍ زمنيٍّ كبيرٍ، من ذلكَ مشهدُ الاختلافِ الذي قادَ إلى الغضبِ، فالقتلِ، وهو الحدثُ المؤسّسُ لمعاركِ الجوازل والحرجف، بِقَتْلِ (صَخْرٍ) والدِ (شيحانَ) لـ(حنظلةَ

(1) راضي، *الوباص*، ص 253.

(2) راضي، *الوباص*، ص 91.

(3) راضي، *الوباص*، ص 91.

بن عمران) زعيمِ الحرجف، لما كشفُوا سرَّ الماءِ عندَ شجرةِ النّذيرة، واتّفقُوا على إسرارِ الأمر، لكنَّ نيّةَ (حنظلة) تبدّلتْ، وأصرَّ على إخبارِ الملكِ (الضّامر) والدِ (الوبّاص)، عندَها "نشب الخلاف بينهم، فتقاتلوا وقُتِل حنظلة والرجلان الآخران بسيوف صخر والربيعة"[1].

كذلك المشاهدُ الدمويّةُ المرعبةُ: مشهدُ معركةِ وادي الرّبيع بينَ جيوشِ العصوفِ معَ القلباءِ ضدَّ جيوشِ الحرجفِ والجوازل، التي قلبت اسمَهُ إلى وادي الخريفِ أو الوادي الأبيض؛ "لأن الجثث التي تركت فيه ولم تدفن، التهمتها الضواري والطيور، وتركت العظام البيضاء تتراكم فيه"[2]. إنّنا أمامَ مشهدٍ يثيرُ الفزعَ، ما يجعلُ الكراهيةَ فاعلًا رئيسًا في سياقِ الأحداثِ وتدافعِها، وبناءِ سايكولوجيّةِ الشخصيّاتِ والمشاهدِ؛ من ذلكَ: مشهدُ قتلِ (شيحان) للملكِ (الوبّاص)، حيثُ "طعنه في صدره، فخرج سيفه من ظهره...فسقط جثة هامدة على وجهه"[3]. وثمّةَ مشهدُ انتحارٍ لـ(نعمان) بعد كشفِ أمرِهِ بمحاولةِ اغتيالِ (شيحان)، ومحاولاتِ اغتيالِ (شيحان) بالسّمّ، حيثُ نجا من اثنتين، وأَغلقَ السّردُ المشهدَ النّهائيَّ دونَ كشفِ مصيرِهِ.

إنَّ تشاكلاتِ الأهواء، كشفتْ شكلَ المضمونِ ببناه العميقةِ، وأسهمتْ في حركيّة السّردِ، وبناءِ الحدثِ، وتفاعلِ الشخصيّاتِ، وتغذيةِ الصّراعاتِ، لكنَّ المفارقةَ الدلاليّةَ تتمثّلُ في كونِ السّياقِ الحضاريّ والثّقافيّ الذي تعبّرُ عنهُ، وتكشفُهُ بدا منسجمًا ومتطابقًا مع رؤاها، ولم يشكّل أيُّ هوًى صدمةً صارخةً في عالمِ المرأةِ أو بنيةِ العلاقاتِ السوسيو ثقافيّةِ سوى محاولاتِ الاغتيال، بما هو وجهٌ فاضحٌ لميثاقِ الأسرى.

جدلُ الثّقافيّ والطّبيعيّ: الفاعلُ السّياقيُّ بينَ المضمرِ والمُعلنِ.

يتفاعلُ المكوّنانِ: الثّقافيُّ والطّبيعيُّ، جدليًّا في حركةِ السّردِ بينَ فعلي الإضمارِ والإعلانِ؛ ما يدفعُ إلى ظهورِ الفاعلِ السّياقيّ، بوصفِهِ بؤرةَ استقطابٍ دلاليٍّ، يحدّدُ طبيعةَ الدّلالةِ وفاعليّتَها في ضبطِ المعنى وتوالدِهِ، من خلالِ تشاكلاتِ الثّقافيّ: الأسرارِ، والرسائلِ، والأحلامِ؛ والطّبيعيّ: ثنائيّةِ الماءِ والدّمِ.

يندرجُ تشاكلُ الثّقافيّ في إطارِ الممارساتِ الإنسانيّةِ الذهنيّةِ الواعيةِ واللّاواعيةِ، بوصفِهِ نصًّا لغويًّا: محكيًّا أو مكتوبًا أو مشهدًا حلميًّا؛ لينهضَ برؤى الشّخصيّاتِ، كاشفًا طبيعتَها، وتحوّلاتِها، مؤدّيًا وظائفَ محوريّةً في سيرورةِ السّرد، وحركيّتِهِ، فحضرتِ الأسرارُ لتكشفَ مراكزَ ثقلِ العاطفةِ والثّقةِ بينَ الشّخصيّاتِ، منها: سرُّ شجرةِ النّذيرة، وسرُّ مقتلِ (حنظلة بن عمران)، اللّذانِ كانا بينَ (بدور) وأبيها،

(1) راضي، *الوباص*، ص 245.

(2) راضي، *الوباص*، ص 303.

(3) راضي، *الوباص*، ص 339.

فأفضتْ بهما (بدور) لأخيها (شيحان)، وتكشَّفا في السّردِ عن وجودِ الماء؛ والسّرانِ يشكّلانِ الجذرَ الذي بنيتْ عليهِ الحبكةُ، وكشفُهما يأتي لضروراتِ خلقِ انفراجٍ للتّصعيدِ والذّرواتِ النّصيّةِ؛ كذلكَ، سرُّ السّردابِ في قصرِ (الوبّاص)، الذي كشفَهُ (نهلان) لـ(شيحان)، وتمّ كشفُهُ في سياقِ الأحداثِ لفكِّ أسرِ (الغازي) وابنِهِ من سجونِ (الوبّاص)، والدّفعِ نحوَ تحقيقِ مصالحةٍ بينَ الجوازلِ والحرجفِ.

وأدّتِ الرّسائلُ وظيفةَ الكشفِ عن طبيعةِ العلاقاتِ والأبعادِ النفسيّةِ للشّخصيّاتِ، ووظيفةَ تأزيمِ الأحداثِ وانفراجِها، وأبرزُها: "رسائل آرام الثلاثة لشيحان"[1] في السّجنِ عن طريقِ ابن أخيها (سوار)، و"رسالة هند إلى أبيها الوباص"[2]، آنَ فرارِها معَ (قصي بن الغازي) عبرَ السّرداب، ورسائل "نهلان"[3] للوبّاص بترتيبِ (شيحان) وتخطيطِهِ؛ غيرَ أنَّ الأحلامَ أو الرّؤى: لغةَ المشهدِ المرئيّ والمسموعِ، أدّتْ وظائفَ استباقيّةً للأحداثِ المصيريّةِ، التي تشكّلتْ على أساسٍ منها فلسفةُ الصّراعِ. من ذلك: رؤيا (مطلق) جدّ (شيحان)، التي أخذتْ شكلَ النّبوءةِ لإقدامِ ابنِهِ (حمزة) على قتلِ (حنظلة): "رأيت طائرا أبيض وبجانبه طائر أسود، كانا يمرحان واقتتلا...وتخضب لون طائري بالأحمر، واتجه صوبي وما زلت أحس بالدماء على وجهي ويدي"[4]؛ فيتكشّفُ جدلُ تشاكلِ الثّقافيّ عن كونِ اللّغةِ في وظيفتِها الإضماريّةِ فاعلًا سياقيًّا.

ولا ينفكُّ الثّقافيُّ، بوصفِهِ فعلًا لغويًّا، عن التّفاعلِ معَ الطّبيعيّ، بوصفِهِ ماءً ودمًا، ما يجعلُ من قراءةِ التّشاكُلِ الطّبيعيّ ضرورةً نصيّةً لقراءةِ الجدلِ بينَهما؛ ذلكَ أنَّ عنصري الماءِ والدّم، يختلفانِ في خصائصِهما: كثافةً، ولزوجةً، ولونًا، لكنّهما يتماثلانِ في جوهرِهما السّائل، ويتفاعلانِ نصيًّا بوصفِهما طاقةَ الحياةِ وسرَّها، وسبيلُهما الجريانُ، بما هو طاقةٌ حركيّةٌ قصوى: جريانُ الماءِ في أرضِ منطقةِ رأس الخيل، وجريانُ الدّمِ في أجسادِ أصحابِها.

أمّا توقُّفُهما، فيكونُ للماءِ بالمنعِ تسلّطًا وجورًا، وللدّمِ بالإراقةِ تجبُّرًا وقوّةً، وهذا ما يحيلُ إلى خطابِ القوّةِ في أبلغِ تجلّياتِهِ؛ إنَّ الماءَ والدمَ، يشتغلانِ بوظيفةِ الجوهرِ المحرّكِ للنّسقِ الثّقافيّ والفكريّ، الذي تصدرُ عنه الرّوايةُ، وتعبّرُ عنهُ في آنٍ معًا، فيتكشّفُ جدلُ تشاكلِ الطّبيعيّ عن كونِ السّائلِ في وظيفتِه المعلنةِ فاعلًا سياقيًّا، وجدلُهما: الثّقافيُّ والطّبيعيُّ، كشفَ عن فاعليّتِهِ السّياقيّةِ، بوصفِهِ صراعَ الإراداتِ

(1) راضي، *الوباص*، ص 117.
(2) راضي، *الوباص*، ص 250.
(3) راضي، *الوباص*، ص 182.
(4) راضي، *الوباص*، ص 56.

في بحثِها الدّائمِ عن معنى وجودِها، متكشّفًا في أسلوبيّةِ بناءِ الشّخصيّاتِ والأحداثِ والحبكةِ، إذ أفضى جدلُهما إلى إبرازِ فلسفةِ الخطابِ الرّوائيّ، بكشفِ حركيَّةِ السُّلطةِ ومآلاتِها بينَ النَّصّ والتَّاريخِ.

خاتمة

فتحَ مصطلحُ التّخيُّلِ التّاريخيّ للوبّاصَ، بوصفِهِ عنوانًا روائيًّا، أفقًا دلاليًّا ليشكّلَ علامةً سيميائيةً كاملةً، في تجاذباتِهِ الموضوعاتيّةِ معَ النصّ والعالمِ، فالقمرُ الدّليلُ فلكيًّا، والمعبودُ دينيًّا، عبَّرَ عن نفسِهِ بالمُلْكِ سياسيًّا، ليكونَ (الوبّاصُ) في تجلّياتِهِ الذّاتيّةِ الحاكمَ المَعبودَ، فينطوي الدّينيُّ في فلكِ السّياسيّ ويخضعُ لَهُ، والطّبيعيُّ في فلكِ الثّقافيّ، ويتشكّلُ وفقَ أهوائِهِ، والماديُّ في فلكِ المعنويّ، ويخضعُ لهيمنتِهِ، إنَّهُ بؤرةٌ مركزيّةٌ كلٌّ ينطوي في فلكِهِ، وبذلكَ شكّلَ العنوانُ خطابًا تمثيليًّا للسّلطةِ في جميعِ علائقِها: دينيًّا، وأسطوريًّا، وثقافيًّا، وسياسيًّا، من خلالِ استثمارِ طاقاتِ اللّغةِ التّرميزيّةِ في شكلِها الفصيحِ ومعناها التُّراثيّ، وامتداداتِها على شبكةِ العنونةِ واستراتيجيّةِ تسميةِ الشّخصيّاتِ، كاشفةً طبيعةَ تشكُّلِ الأنساقِ اللّغويّةِ والثّقافيَّةِ والدّينيَّةِ والذّهنيَّةِ العربيَّةِ في فهمِ السُّلطةِ والموقفِ منها؛ بهدفِ تعريتِها وخلخلتِها، من خلالِ فلسفةِ الإسقاطِ الرّمزيّ والاسْتعاريّ؛ التي عبّرتْ عن نفسِها في بنيةِ الحبكةِ: الصُّغرى والكُبرى من جهةٍ، وطبيعةِ الصّراعاتِ في تقابليّتِها وتضادّها على شكلَيْنِ: وفاقيٍّ وطباقيٍّ، من جهةٍ أخرى.

وما كانَ للخطابِ الرّوائيّ أنْ يتثبَّتَ بمعزلٍ عن فلسفةِ المكانِ وقدرتِهِ العاليةِ على خلقِ الإيهامِ، حيثُ شكّلَ بؤرةَ احتواءٍ للفعلِ والشّخصيّةِ، من خلالِ المكانِ المفتوحِ والمغلقِ، كما كشفتِ التّشاكُلاتُ النّصيَّةُ من خلالِ سيمياءِ الأهواءِ عن طبيعةِ الشّخصيّاتِ، ووعيها، ورؤيتِها، وحركتِها وفقَ معيارَيْنِ للعاطفةِ: الحبِّ والكراهيةِ؛ ما أسهمَ في فهمِ الأبعادِ النفسيّةِ للشّخصيّاتِ، وبيّنَ الأنساقَ التي تحكمُ رؤيتَها ووعيها؛ كذلكَ أدّى جدلُ الثقافيُّ والطّبيعيُّ إلى رسمِ مساراتِ حركةِ الدّلالةِ، وطبيعةِ اشتغالِها.

وبذلكَ، حفرتْ روايةُ "الوبّاص" للكاتب تامر راضي، بوصفِها تخيُّلًا تاريخيًّا، في أسئلةِ الرّاهنِ السّياسيّ والثّقافيّ والأخلاقيّ، لكشفِ طبيعةِ خطابِ السُّلطةِ المُعلنِ والمُضمرِ، وعمدتْ إلى تهميشِ سلطةِ المقدّسِ في الخطابِ السّياسيّ ومؤسسةِ الحكمِ بواسطةِ التّصوّرِ الاستعاريّ التّاريخيّ، لتعيدَ قراءةَ راهنِ السّلطةِ السياسيّةِ ومآلاتِها، من خلالِ مشهدِ جغرافيا رأس الخيل، التي انفتحتْ على صراعٍ تاريخيّ ووجوديّ قديمٍ جديدٍ، هو الصّراعُ معَ الفرسِ والرّومِ في إطارِهِ المُعاصرِ.

المصادر والمراجع

إبراهيم، عبدالله، *التخيل التاريخي: السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.

إيكو، أمبرتو، *السيميائية وفلسفة اللغة*، ترجمة أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.

إيكو، أمبرتو، *القارئ في الحكاية: التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية*، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996.

بحراوي، حسن، *بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)*، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990.

بنكراد، سعيد، *الهوية السردية، المحكي بين التخييل والتاريخ*، ط1، المركز الثقافي للكتب، الدار البيضاء، 2023.

بنكراد، سعيد، *السميائيات السردية: مدخل نظري*، ط1، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2001.

بيني، لوران، *الوظيفة السابعة للغة*، ترجمة محمد الجرطي، ط1، منشورات نابو، بغداد، 2021.

تامر، فاضل، *التاريخي والسردي في الرواية العربية*، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، 2018.

الحاج علي، هيثم، *الزمن النوعي وإشكالات النوع السردي*، ط1، مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، القاهرة، 2023.

دراج، فيصل، "نقد السلطة واستعارة الماضي"، *مجلة المستقبل العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ع 378، 2010، ص 61-76.

الدوهو، محمد، *السلطة والمعرفة في الرواية العربية*، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2022.

راضي، تامر، *رواية الوبّاص*، ط1، الآن ناشرون وموزعون، عمان، 2019.

ريكور، بول، "الحياة بحثا عن السرد"، *الوجود والزمان والسرد: فلسفة بول ريكور*، تحرير ديفيد وورد، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999.

ستالوني، إيف، *معجم الرواية*، ترجمة محمد آيت ميهوب، ط1، دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، أبو ظبي، 2024.

الشيخ، محمد، *المثقف والسلطة: دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر*، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991.

غريماس، أ.ج، وكورتيس، ج، وآخرون، *المنهج السيميائي: الخلفيات النظرية وآليات التطبيق*، ترجمة عبد الحميد بورايو، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2014.

غريماس، ألجيرداس، وفونتنيي، جاك، *سيميائية الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس*، ترجمة سعيد بنكراد، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010.

القاضي، محمد، *الرواية والتاريخ: دراسة في تخييل المرجعي*، ط1، دار المعرفة للنشر، تونس، 2008.

قبيلات، نزار مسند، "رواية مسك الختام للأسير الفلسطيني "باسم خندقجي" دراسة في المتخيل التاريخي"، *مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، المجلد السادس عشر، العدد الأول، 2019، ص 182-211.

لحمداني، حميد، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003.

لوكاش، جورج، *الرواية التاريخية*، ترجمة، صالح جواد كاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.

مفتاح، محمد، *التلقي والتأويل*، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994.

مكيافيللي، نيقولا، *كتاب الأمير*، ترجمة أكرم مؤمن، ط1، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.

ابن منظور، جمال الدين بن مكرم (ت711هـ/ 1311م)، *لسان العرب*، تحقيق عامر أحمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ياوس، هانس روبرت، *جمالية التلقي: من أجل فهم جديد للنص الأدبي*، ترجمة رشيد بن حدو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.

References

Baḥrāwī, Ḥasan. *Binyat al-shakl al-riwā'ī: al-faḍā', al-zaman, al-shakhṣīyah*, 1st edition, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, Casablanca, 1990.

Binet, Laurent. *Septième fonction du langage*, New York : Farrar, Straus and Giroux, 2017.

Bingarād, Sa'īd. al-*huwīyah al-sardīyah, al-maḥkī bayna al-takhyīl wa-al-tārīkh*, 1st edition, al-Markaz al-Thaqāfī lil-Kutub, Casablanca, 2023.

Bingarād, Sa'īd. *al-Simīyā'īyāt al-sardīyah: madkhal naẓarī*, 1st edition, Manshūrāt al-zaman, Casablanca, 2001.

Darrāj, Fayṣal. "Naqd al-Sulṭah wa-isti'ārah al-māḍī", *Majallat al-mustaqbal al-'Arabī*, Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-'Arabīyah, Lebanon, no. 378, 2010, Pages 61-76.

al-Dūhū, Muḥammad. *al-Sulṭah wa-al-ma'rifah fī al-riwāyah al-'Arabīyah*, 1st edition, Kunūz al-Ma'rifah, 'Ammān, 2022.

Eco, Umberto. *Semiotica e filosofia del linguaggio*, edited by Giulio Einaudi editore s.p.a., Torino, 1984.

Eco, Umberto. *The Role of The Reader: Exploration in The Semiotics of Texts*, Indiana University Press, Bloomington, 1984.

Greimas, A. J. and J. Coures. *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,* Paris: Hachette, 1993.

Greimas, A. J. and J. Fontanille. *The Semiotics of Passions, from States of Affairs to States of Feelings*. Minneapolis: University of Minnesota Press, Minnesota, 1993.

al-Ḥājj 'Alī, Haytham. *al-zaman al-naw'ī wa-ishkālāt al-naw' al-sardī*, 1st edition, majmū'ah Bayt al-Ḥikmah lil-Ṣinā'āt al-Thaqāfīyah, al-Cairo, 2023.

Ibn manẓūr, Jamāl al-Dīn ibn Mukarram (d. 711A.H./1311 A.D.). *Lisān al-'Arab*, taḥqīq 'Āmir Aḥmad Ḥaydar, 1st edition, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah, Beirut, 2003.

Ibrāhīm, 'Abd Allāh. *al-Takhyīl al-tārīkhī: al-sard, wa-al-imbrāṭūrīyah, wa-al-tajribah al-isti'mārīyah*, 1st edition, al-Mu'assasah al-'Arabīyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr, Beirut, 2011.

Jauss, Hans Robert. *Toward an Aesthetic of Reception (Theory & History of Literature)*, University of Minnesota Press, Minnesota, 1982.

Laḥmidānī, Ḥamīd. *Binyat al-naṣṣ al-sardī min manẓūr al-naqd al-Adabī*, 3th edition, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, Beirut, 2003.

Lukacs, Georg, *The Historical Novel*, Beacon Press, Michigan, 1963.

Machiavelli, Niccolò. *The Prince*, Penguin Books, London, United Kingdom 1981.

Miftāḥ, Muḥammad. *al-talaqqī wa-al-ta'wīl*, 1st edition, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, Casablanca, 1994.

al-Qāḍī, Muḥammad. *al-riwāyah wa-al-tārīkh : dirāsah fī takhyīl al-marjiʻī*, 1st edition, Dār al-Maʻrifah lil-Nashr, Tunis, 2008.

Qubaylāt, Nizār Musnad, "riwāyah misk al-khitām ll'syr al-Filasṭīnī" Bāsim khndqjy "dirāsah fī al-mutakhayyal al-tārīkhī", *Majallat Jāmiʻat alsharijah lil-ʻUlūm al-Insānīyah wa-al-Ijtimāʻīyah*, vol.2, no.1, 2019, Pages 182-211.

Rāḍī, Tāmir. *riwāyah alwbbāṣ*, 1st edition, al-ān Nāshirūn wa-Muwazziʻūn, Amman, 2019.

Ricoeur, Paul, *On Paul Ricoeur: Narrative and Interpretation*, Editor David Wood, Routledge, London, 1991.

al-Shaykh, Muḥammad, *al-muthaqqaf wa-al-sulṭah : dirāsah fī al-Fikr al-falsafī al-Faransī al-muʻāṣir*, 1st edition, Dār al-Ṭalīʻah, Beirut, 1991.

Stalloni, Yves. *Dictionnaire du roman*, 1st edition, Armand Colin, paris, 2012.

Tāmir, Fāḍil. *al-tārīkhī wālsrdy fī al-riwāyah al-ʻArabīyah*, 1st edition, Ibn al-Nadīm lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ, Beirut, 2018.